الألف كتاب
الثاني
١٩٧

رحلة.. الأمير رُدُولف إلى الشرق

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الجزء الأول

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رحلة..
الأمير رودلف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

رحلة ..
الأمير رودلف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الجزء الأول

لصاحب السمو الإمبراطوري والملكي
الأمير رودلف

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتـــاب :

TRAVELS IN THE EAST

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة العربيـــة	٧
الفصل الأول	٣١
الفصل الثـــانى	٥٣
الفصل الثـــالث	١٠٧
تعليقات المترجم عن الفصل الأول	١٤١
تعليقات المترجم عن الفصل الثـــانى	١٤٧
تعليقات المترجم عن الفصل الثالث	١٥٦

مقدمة الترجمة العربية

قام الأمير ردولف (صاحب السمو الامبراطورى والملكى) وهو أحد الأمراء المهمين من ال هبسبرج ، برحلته فى عهد الخديو اسماعيل ، وقد قطع مصر من ادناها الى اقصاها ، فزار الاسكندرية وسواحل مصر الشمالية ، والقاهرة والفيوم (وهو ما نقدمه فى هذا الجزء) وتوغل فى صعيد مصر حتى اسوان ، فوصف رحلته النيلية والظواهر الجغرافية ، وابدى انبهارا بآثار « مصر المقدسة » على حد تعبيره ، وعاد من أسوان ليمكث فى القاهرة فترة اخرى ثم يتوجه الى بورسعيد ، ويقطع قناة السويس ، ويتجول فى البحر الأحمر (وهو ما نقدمه للقارىء فى الجزء الثانى) ، ثم يتوجه الى الشام ويزرو بعض موانئها ويتجه للقدس الشريف ، ثم يعود الى فينا (وهو ما نقدمه فى الجزء الثالث) ٠

والرحلة ممتعة وغاصة بالمعانى والتلميحات ذات الدلالة ، وبالنسبة لمن يقرءون الرحلات كمصدر للتاريخ السياسى والاجتماعى ، لابد أن نذكر لهم توطئة أو دراسة تفسر كثيرا من المصطلحات والأمور الواردة بها ٠

★★★

قد يكون أول ما يلفت النظر هو لقب الأمير « صاحب السمو الامبراطورى والملكى » ، فقد تمت الرحلة والنمسا والمجر تشكلان كيانا سياسيا واحدا عرف بالمملكة الثنائية أو مملكة النمسا والمجر ، وكان لكل منهما دستور مستقل وحكم ذاتى ، أما السياسة الخارجية وأمور الدفاع فمن اختصاص امبراطور النمسا والمجر ، وهو الرمز الذى يجمع المملكتين وتوابعهما فى كيان واحد ، فالأمير ردولف اذن صاحب سمو امبراطورى لأنه من آل هبسبرج ، وقريب للامبراطور فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا والمجر وتوابعهما فى ذلك الوقت (استطعنا الحصول على صورة معبر قله ألحقناها بالفصل الثانى) ، والأمير ردولف فى الوقت نفسه من أمراء النمسا أو مملكة النمسا ، فهو اذن صاحب « السمو الملكى » ٠

★★★

لقد رسم الساسة المجتمعون فى مؤتمر فينا الشـــهير (١٨١٤ ـ ١٨١٥) خريطة أوروبية جـديدة ، بهدف اتقاء أخطار تأتى من فرنســـا ، كتلك الأخطار التى صـدرت عنها بسبب ثورتها الشهيرة وما تلاها من تتابعات ، فحوصرت فرنسا بمجموعة من الدول الحاجزة . وعمل الساسة المجتمعون على الشد من أزر النمسا حتى يسود الاتجاه المحافظ فى أوربا ، باعتبـار النمسا من أهـم الكيانات الأوربية المحـافظة التى تحكمهـا أسرة عريقة تهددها أية أفكار ثورية · ومن هنا فقـد جعـل مؤتمر فينـا من نصيبها شمال ايطاليا ووسطها ، وتريست والساحل الدلماسى (دلماشيا). وظهرت النمسا بعد مؤتمر فينـا كرئيسة لانحـاد جرمـانى · وقد أجبرت الظروف هذه الامبراطورية العتيدة على منح المجر استقلالها الذاتى مع تبعيتها للامبراطورية ، وقد طغت على الامبراطورية التقاليد والشـكليات وزادت الاستثناءات . وكان نبلاؤها معفون من الضرائب وكان الفلاحون يعانون كل أنواع المعاناة ، وظل هذا الوضع على حاله فى عهد الامبراطور فرديناند (١٨٣٥ ـ ١٨٤٨) بل وتفاقم سوءا فى عهد الامبراطور فرانسوا جوزيف (١٨٤٨ ـ ١٩١٧) الذى تمت الرحلة فى عهده · والأمير ردولف كاتب رحلتنا هذه هو ابن بيئته وابن النمسا وابن الأسرة الحاكمة ، فهـل ترك كل ذلك أثره فى رحلته ؟ اننا نلاحظ أن حال الفلاح المصرى لم تستثره ، ولم يتعرض لذلك الا لماما وكان وصفه للأحوال البشرية مجردا خاليـا من العاطفة ، وكأنه يرى أن هذا هو الوضع الطبيعى للفلاح ، وكان اهتمامه عندما كتب رحلته هذه منصبا ـ غالبا ـ على وصف الظواهر الجغرافية والحياة الحيوانية والنباتية ، ووصف الآثار ، والتعرض لتاريخ المدن ، والتغنى بجمـال الطبيعة ، والاشـارات لأصول السـكان (اشـارات أنثروبولوجية) مع اشارات ذات دلالات سياسية ونفسية ·

ومع أن النمسا ـ فيما يقول المؤرخ فشر ـ كان بهـا فى ذلك الوقت أقسى أنواع الشرطة فى أوربا « وأفظعها وحشية وأشـدها قمعا ·· » ، الا أن الأمير حـدثنا فى رحلته هذه عن مدى خـوف المصريين من رجال السلطة المصرية ، بل من كل لابسى الملابس الرسمية ·· مجرد ملابس رسمية تخيفهم وتجعلهم « يختبئون بين أعواد القصب » على حـد قوله الذى يروى فيه واقعة محددة ، لا مجرد تشبيه بلاغى ·

ومتابعة تاريخ امبراطورية النمسا ، أو المملكة الثنائية بعـد ذلك (مملكة النمسا والمجـر) توضح هذا الحشد من الأجناس المختلفة التى استقبلت الأمير ردولف ورفاقه عند قدومه لمصر : ايطاليون ، ويونانيون ، ودلماشيون (أهل دلماشيا والساحل الدلماشى ـ الساحل الممتد من شـمال

الحدود الألبانية حتى تريست بما في ذلك ساحل استيريا) والبان · الخ ·
فقد كانت الامبراطوريه النمســـاوية تعج بأجناس مختلفة ، عنــدما استقرت بعض جالياتها فى مصر حصلت على الحمـــاية النمساوية ، بل وسعى بعض أفراد هذه الجنسيات ممن لا يتبعون النمسا سياسيا للحصول على الحماية النمساوية ، وقد حقق بعض هؤلاء ثراء بالغا فى مصر ، وقدم لنا ردولف عن هذا التريستى الذى تخصص فى انتاج كل التحف الشرقية فى خان الخليلى وسوق الحمزاوى ·

ولم ينس ردولف أن يذكرنا برأيه في الأزهر الشريف والتعليم الديني وهو يعتبر الأزهر الشريف « مفرخة » للتعصب الاسلامى ، على حد قوله ، ويبث همومه لقارئيه ذاكرا ان هذا المعهد ــ وقد أسماه جامعة القــاهرة ــ يصدر التعصب للعالم اجمع ، وهو فى هذا يذكرنا برأى بيرتون (نشرت رحلته الهيئة العامة للكتاب ــ الألف كتاب الثانى) ــ الذى يفضـــل ــ من وجهة نظر أوربية ــ اسلام الدراويش أو بمعنى آخر الاسلام اللاعقــلانى ــ اسلام الغيبيات والجان وما الى ذلك ·

النصوص الأثرية المترجمة ، ووصف الآثار :

ومما يزيد من اهمية هذه الرحلة أنها تضــم عــددا غير قليل من النصوص الأثرية المترجمة للعربية ، يزيد من قيمتها أن مترجمها هو العالم الأثرى الشهير برجش Brugsch · ·

وكان برجش باشا هو ناظر مدرسة اللســان المصرى القديم (اللغة الهيروغليفية) التى أسست سنة ١٨٦٩ ، لكن هذه المدرسة الغيت سنة ١٨٧٦ وقد تخرج فى هذه المدرسة عدد من الآثاريين منهم أحمد كمــال باشا (١) · وقد نشر برجش فى غير هذه الرحلة كثيرا من الترجمــات لنصوص هيروغليفية قـديمة (٢) ·

وبالاضافة للنصوص الأثرية ، فقد قدم لنا برجش باشا وصفا لبعض المواقـع الأثرية ، وفيمــا يلى قائمــة بكليهما (النصـــوص المترجمـــة ، والوصف التقريرى للمواقع) لأهميتها للمهتمين بالدراسات التاريخيــة والأثرية :

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ · دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠٥ ·

(٢) وردت اشارات لذلك فى : نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم · جيمس رتشارد · ترجمة عبد الحميد زايد ، نشر هيئة الآثار المصرية ·

١ ــ تقرير عن هليوبولس ــ الفصل الثانى ٠

٢ ــ الحراية المذنونة ــ الفصــل الرابع ٠

٣ ــ دنــدره ــ الفصــــل الرابع ٠

٤ ــ آثار الكرنك ــ الفصل الرابع ٠

٥ ــ طيبـــة ــ الفصــل الرابع ٠

٦ ــ ترجمة لوحة جرانيتية فى ارمنت (ترجع لحوالى سنة ١٩٦٠ ق٠م) الفصــــل الرابع ٠

٧ ــ كــوم امبـــو ــ الفصــــل الرابع ٠

٨ ــ عن آثار اســوان ــ الفصــل الرابع ٠

٩ ــ فيـــلة ــ الفصــــل الرابع ٠

١٠ ــ تقرير اثرى عن مقابر بيبان الملوك ــ الفصل الخامس ٠

١١ ــ ترجمة نص هيروغليفى فى مقبرة سيتى الأول (١٣٥٠ ق٠م) الفصــــل الخــامس ٠

١٢ ــ آلهة مصر الفرعونية (شجرة نسب) ــ الفصل الخامس ٠

١٣ ــ تاريخ ملف ــ الفصــل الخــامس ٠

١٤ ــ الأهرامات وأبو الهول ــ تقرير اثرى ــ الفصل الخامس ٠

١٥ ــ عن التاريخ القديم لبرزخ السويس ــ الفصل السادس ٠

١٦ ــ برزخ السويس جسر الأمم ــ الفصــــل السادس ٠

المصريون فى رحلة ردولف :

حظيت الملاحظات الأنثروبولوجية بمكانة مهمة فى هذه الرحلة ٠ لقد رأى الأمير أن أهل مصر فى معظمهم من عرق عربى ، بمعنى أنه كغريب وافد طبق ما قرأه ودرسه عن صفات العرب الفيزيقية ، فوجدها تنطبق على نحو أو آخر ــ على معــظم المصريين ، حتى الفــلاحين الذين رأى فيهم استمرارا للمصريين القدماء رأى فى ملامحهم سمات سامية Semitic ووجدهم عنصرا تسرى فى عروقه الدماء العربية على نحو أو آخر ، أما العنصر الثانى الذى ترك بصماته على دماء المصريين فيتمثل فى الأتراك وأهل شرق أوربا والقوقازيين وأهل الشرق الأدنى ٠ لقــد لاحظ ذلك بمجرد وصوله للاسكندرية : « ٠٠٠ واحتشدت على امتداد الماء قوارب ملأى بالعرب من كل الطبقات : فمنهم الغنى ومنهم الفقير ولكنهم كــانوا يلبسون ملابس فاخرة لها طابع خاص ٠٠٠ ورأينا كثيرا من أهل المدن

من الشرق الأدنى واليونانيين والايطاليين واليهود ، وكان منهم من يضع فوق رأسه طربوشا بينما كان آخـرون منهم بغير طرابيش » • ولما دخـل الاسكندرية بالفعل لفت نظره العربي من الحمارين والسقائين والبائعين والفلاحين ذوى الجلاليب الزرق داكنى البشرة •• وجميعهم داكنو البشرة ، فالعربى الحقيقى داكن اللون وله ملامح جميلة ونبيلة ، وشكله رقيق لكنه مفعم رجولة ، والعربى ــ وان كان أرقى من اليهودى بكل المقاييس ــ الا أنه يشبهه بشكل واضح لا تخطئه عين •• » ، لكنه يعود فيقول : والفلاحون رغم أن الدماء العربية تسرى فيهم الا أنهم أقرب شبها بالمصريين القدماء » •

وكل هذا لا يمنع أن المصريين قد تمازجوا تماما وأصبحوا عنصرا واحدا ، فعبد القادر باشا الذى أشرف على رحلة الأمير النمساوى كان « نصفه تركى ونصفه عربى » ولم ير الأمير أى فرق عرقى ــ فيما يقول هو ــ بين المسيحيين فى سوق الحمزاوى ، وهى سوق التجار المسيحيين زمن الرحلة ، واليهود فى حى الجواهرجية والمسلمين فى حى النحاسين • ويقول : « وفى السوق يؤكد العرب أنهم جنس سامى حقـا كاخـوانهم اليهود • وأنت لا تستطيع التمييز بينهم الا بمشـقة » •

ويشكل البربر ــ فيما يرى ردولف ــ جزءا من سكان مصر خاصة فى الصحراء الغربية ، وقد رآهم يعملون جنبا الى جنب مع النوبيين فى حراسة مراكز الصرافة وبيوت المال • ويقول عن المصريين فى الصحراء الغربية : « انهم بربر أصلاء ••• ألوانهم داكنة ومظهرهم الخارجى يوحى بصلابة أشد مما عليه سكان النيل الأدنى (الدلتا) وغالبهم طوال القامة ويتسمون بالنحـول ، وان كانت ملامحهم أقل نبلا وجمالا من ملامح القبائل البدوية فى الشمال ، فالدماء الزنجية واضحة فيهم وبعضهم سود تماما ، له شعر مفلفل قد يحسبهم المرء من البربر ، والحقيقة أنه قد تم استرقاقهم ــ عنـدما كانوا أطفالا ــ من موطنهم فى داخل أفريقيا ثم حصلوا على حريتهم من القبيلة التى نشأوا بها ، ومع هذا فقد ظلوا محتفظين بلغـة البدو وزيهم وعاداتهم ونسـوا أصولهم الافريقية تماما » ، وعن أهـل الفيوم ــ نلاحظ أن ردولف يثبت تأثرهم بالعرق البربرى •

كل هذا لا ينفى بأية حال من الأحوال الامتزاج العرقى الكامل للشعب المصرى ، لكن أهمية ما نذكره الآن أن التراث الثقافى والعادات والتقاليد وما الى ذلك ــ كل ذلك يورث تماما كما تورث الصـفات الفيزيقيـة ، ومن هنا لابد من دراسة هذا التراث الأفريقى والبربرى والعربى والأوربى الشرقى لفهم العقلية المصرية ، بالاضافة بطبيعة الحـال لدراسة التـراث

الفكرى الفرعونى والقبطى الأساسى · ولم ير ردولف فى أقباط مصر أى اختلاف عرقى يفرق بينهم وبين المصريين الآخـــرين فهم من (الخلطة) نفسها · وتلك ترجمة دقيقة لعبـارته الدالة على ذلك : « ومن الناحية العرقية ، فان قبط مصر ينتمون للعـرق نفسه الذى ينتمى اليه المصريون الاخرون » ، ووصف بعض رجال الدين المسيحى الأورثوذكسى الذين قابلهم فى مصر القديمة بأن « بشرتهم داكنة ·· وسحنتهم تشبه ـ بشكل واضح ـ سحن اليهود ··· » · والأمير كما سبق القول ـ يرى بين العرب واليهود شبها فيزيقيا ، ويقول : « وقد رأينا بين الكهنة والقسس وغلمان الخورس الوجوه البنية الداكنة كوجوه الأفارقة الخلص » · ولاحظ الأمير أنه « كلما توغلنـا للجنـوب ، زارت دكانة البشرة » وهـذا طبيعى نتيجـــة الأثر الأفريقى فى المصريين ، فمصر أفريقية على أية حال ، ومع هذا فقد لاحظ الأمير عددا كبيرا من الراقصات القوقازيات والبربريات فى صعيد مصر ·

ومعظم الدراويش الذين رآهم الأمير كانوا ـ فيما يقول ـ يعودون فى أصولهم الى شرق أوربا وآسيا الصغرى ·

ومع هذا فقد أشار الأمير الى أعراق غريبة كالعبابدة ، الذين رأى فيهم (العبابدة) جنسا غير سامى ، وغير زنجى كذلك ، وزعـم أنهم من الكوش (الجنس الـكوشى Kushites) ، ويسـكنون التـــلال الى الشرق من النيل أى بين النهر والبحر الأحمر واسـتقر بعضهم على ضفاف النيل (الفصل الرابع) ·

وعن سكان أسوان (فى الفصل الرابع ص ٦٢) رأى ردولف فيهـم تجارا عربا (وصفهم بأنهم ساميون ماكرون) يخدعون ويغشون زبائنهم الذين هم نوبيون وزنوج وسلالة الأثيوبيين القدماء والعبابدة وقبـائل كوشية صغيرة ·

وحول بحيرة المنزلة رأى ردولف ـ فيما يقول ـ بقايا الكوشيين (الهكسوس) · قد يكون هذا خطأ على نحو أو آخر ، وقد يكون صحيحا ، لكنه على أية حال رؤية من عيون غريبة ، وقد ترى عين الغريب ما لا تراه عين القريب ·

الحياة الحيوانية الطبيعية فى مصر وقت الرحلة :

غطى وصف الحياة الحيوانية شطرا كبيرا من هـذه الرحلة ، لسبب بسيط وهو أن الأمير ردولف اتخذ هواية الصيد وسيلة للاستمتاع أثنــاء رحلته هذه ، أو أنه كان بالفعل مهتما بعـلم الحيوان ، ونورد فى السطور

التالية التامة شاملة عن الطيور والحيوانات البرية التى اصطادها وحصل منها على نماذج ، ومن هذا يتضح مدى ثراء مصر فى هذا المجال خاصة زمن الرحلة (النصف الثانى من القرن التاسع عشر) .

لقد حدثنا عن كثرة طيور البلشون او مالك الحزين وهى ما نعرفه فى مصر بطيور (أبو قردان) ، واذا كان النوع الأبيض هو المعروف من هذه الطيور الآن ، وهو النوع الذى نراه بكثرة فوق الأشجار المحيطة بحديقة الحيوان بالجيزة ، وكنا نراه ونحن صغارا يملأ الحقول فى الريف خاصة بعد ريها ، الا أن الأمير يحدثنا عن الوان اخرى لهذا الطائر فمنه البلشون الأسود والبلشون الأرجوانى . وقد وجد الأمير هذا الطائر فى حدائق شبرا وفى كل مكان ذهب اليه فى مصر سواء فى الصعيد ام شرق الدلتا وحول بحيرة المنزلة ، كما وجده فى الحقول حول الاسكندرية .

وبالاضافة لهذا فان الأمير يحدثنا عن حوالى خمسين طيرا منها النسور Vultures وقد رأى منها انواعا عدة عند المحجر فى جبل المقطم ورصدها على ضفتى النهر اثناء رحلته الى اسوان وجزيرة فيلة ، كما حدثنا عن الحدءات التى كانت شائعة جدا فى مصر ، وطيور الشنقب (بتشديد الشين وضمها وتسكين النون وضم القاف) Snipe وهى - كما ورد فى معجم مصطلحات العلوم الزراعية - من فصيلة دجاجات الأرض وتسمى فى بلاد الشام شكب (بضم الشين والكاف) ، وقد صادها فى حدائق شبرا واثناء رحلته النيلية للصعيد ، كما رأى الكراكى (جمع كركى) وهى طيور طويلة الساق ، وصادفها فى الدلتا والصعيد ، وطيور الوروار bee-eater وهذا الطائر يسمى أيضا الخضار (بتشديد الضاد وفتحها) كما يسمى أيضا بالتصغير الخضيرة أو الخضيراء ، واسم الوروار شائع فى الشام . وهو طير من الجوائم ملتصقة الأصابع ، وقد صاد منه عددا لا بأس به فى حدائق شبرا .

ومن الطيور التى حدثنا عنها أيضا أبو طيط ويسمى هذا الطائر البيوويت peewit وفى العامية المصرية الزقزاق الشامى ، وسيقانه طويلة ويعيش حول المستنقعات وعلى ضفاف الأنهار ، وقد صاد الأمير منه فى حدائق شبرا . وطيور الحجل (بفتح الحاء والجيم) Partridge ولما زار الفيوم وجد حول بحيرة قارون الصقور الحوامة eagle buzzard والبجع وطيور الغطاس diver . وحدثنا عن طيور النورس ويسمى الواحد منها أيضا زمج الماء (بضم أوله وتشديد الميم وفتحها) gull ويبحث عنها فى معاجم الحيوان تحت اسم larus وهى طيور ريشها طويل ، وهى من رتبة كفيات القدم وتطير اسرابا فوق البحيرات والشواطىء ووصفها الأمير بأنها طيور ساذجة يسهل صيدها

كما حدثنا عن نسور النهر river eagle ويقـال لهـا أيضا عقبان البحر وقد وجدها حول بحيرة قارون • وفى الفيوم ايضا حدثنا عن البط أبيض وطيور الغراء السوداء (بتشديد الراء وفتحها) black coots وقد وجدها تتردد بكثرة حول البوص (الغاب) القريب من بحيرة قارون ويسمى الواحد من هذه الطيور ايضا غرة (بتشديد الراء وفتحها) وهى من طيور المستنقعات وسـيقانها طويلة ، ومن اسـمائها المعجمية ايضـا Fulica ودجاجات الأرض وهى طيور برية طويلة الساق اسمها العلمى Scolopax rusticola كما حدثنا اثناء رحلته النيلية فى الصعيد عن طيور ابو ملعقة Spoonbills ، واوز النيل والخطاف (بتشديد الطاء وفتحها) أى السنونو Swallow واللقالق Storkes • وكانت رحلته ابحيرة المنزلة ثرية فى هذا الصدد ، فحدثنا ــ بالاضافة لطيور أخـرى ــ عن طيور الغاق Cormorants وهو طائر مائى من الفصيلة البجعية من كفيات القدم ويسـمى أيضـا غـراب البحر Sea raven ، وطـائر مزرة البطـائح moor buzzard • ويمكن البحث عنه فى معاجم الحيوان تحت مصطلح Circus • وحول المنزلة أيضا حدثنا عن طيـور التفلق (بكسر التـاء

وتسكين الغين وكسر اللام) rail وهو طائر مائى قصير الجناحين طويل الساق ، وطيور الزقزاق Plover وتسمى أيضا قـلقـاط ويسميه العامة فى مصر أبو الروس ، وصادف طيور السمان كثيرا ، وهى الطيور التى تسمى بالعامية الشامية فرى ، وان كان من الملاحظ أن هـذا المسمى الشامى بدأ يشيع فى العامية المصرية • وقد لفت نظره كثيرا ــ واثار اعجابه أيضا ــ طائر البشروس (الفلامنجو Flamingo) • كما حدثنا عن طائر زمار الرمل Sand pipers ويسمى ايضا طيطوى (بتشديد الياء) وهو طائر طويل الساق والمنقار ، وفى قنا صادف البوم الصياح Screech owl ، ويسمى ايضـا البوم الأصـم والواحـدة منهـا البومة الصماء ، وبالعامية المصرية (البومة الطرشة) ، وقد التقى بها فى المعابد الجنائزية بالصعيد وثمة نوع من هذا البوم يسمى الهامة • كما حدثنا عن طيور أبو مجرفة Oveset or Scooper وهو طائر ريشه أبيض وأسود وساقاه طويلتان ، ومنقاره مقوس لأعلى ، ومن هنا سمى (أبو مجرفة) لتشابه منقاره مع المجرفة •

وقبل أن يودع الأمير مصر فى طريقه لفلسطين حدثنا عن صدى الكروان •

★ ★ ★

أما عن صيده من الحيوانات البرية ، فقد اندهش ــ هو نفسه ــ لكثرتها حتى فى المناطق المزروعة والآهلة بالسكان ، فقد اصطاد فى حدائق شبرا حيوانات ابن اوى Jackal ، والاسم العلمى لهذا الحيوان هو Canis aureus وهو من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم ، ووصف الأمير الذئب المصرى بالوسامة ، وقد اصطاد منه فى حدائق شبرا ، وفى كل مكان ــ سواء فى الصعيد أو الدلتا ــ قام فيه برحلة صيد ٠

وحدثنا عن ثعالب الصحراء والسحالى والنموس حول الفيوم ، كما اصطاد الأمير حيوان الوشق (بفتح الواو والشين) Lynex وتكتب أيضا Lynx بدون حرف ، وقال ان عيونه خضراء ، وقد التقى به حول بحيرة قارون ، وهو حيوان مفترس من جنس السنور ٠ وكان له تجربة فى صيد الأرانب البرية فى الفيوم ومنطقة السويس ، أما الضباع فقد كان شغوفا شغفا زائدا بصيدها وكأن بينه وبينها تأرا ٠

الحياة الحيوانية الطبيعية فى فلسطين وقت الرحلة :

بعد أن زار الأمير مدينة القدس تفرغ للنزهة والصيد ، فحدثنا عن طيور الصرد (بضم الصاد وتشديدها) وعن طيور القمرية (بضم القاف وتسكين الميم) Turtle-dove والسمان (الفرى) وعن العقاب النسارى Osprey على نهر الأردن وطيور الشرقرق roller ويسمى الواحد من هذه الطيور أيضا شقراق (بكسر الشين وتسكين القاف) وهو طائر أصغر من الحمام ، له الوان زاهية ، ومنه الأحمر الوردى ومنه الأزرق ومنه الأخضر ، وطيور الوروار ، وطيور الدراج (بتشديد الراء وفتحها) Frankolin وهى طيور تشبه الحجل ، وطيور التدرج (بفتح التاء وتسكين الدال وضم الراء) Pheasant ومن هذه الطيور ما هو فضى وما هو ذهبى وما هــو مطوق ، بمعنى أن لون الريش حول رقبته يختلف عن لون الريش فى سائر جسمه ٠

اما عن الحيوانات البرية التى صادها حول مسيلات نهر الأردن فاهمها على الاطلاق الخنازير البرية التى كانت توجد هناك بأعداد كبيرة ٠ كما حدثنا عن حيوان الشيهم (بتشديد الشين وفتحها ــ Porcupine وهو حيوان شائك من القوارض ويسمى أيضــا النيص (بتشديد النون وفتحها) وحيوان الأرماديللو Armadilo ويسمى أيضا (المدرع) وهو حيوان ثديى ، لرأسه وجسمه دروع من الصفائح العظمية الصغيرة ، وهو يستطيع أن ينكمش داخل هذه الدروع على هيئة كرة ، ويسمى

بالتسخير أيضا (دويرع) وقام الأمير باصطياد بعض الأيا
التلال بين يافا والقدس · وهى حيوانات مجترة مختلفة الأذو
عن حيوان كسار البندق nutcraker والأرانب الداكنة والثع
على نحو خاص ـ كالمهد به بحيوانات ابن آوى والضبا
لنا من خلال معاينته لما اصطاده أن ابن آوى فى فلسطين أد
اوى المصرى وأطول منه سيقانا ، وان كان ذيله اقصر من
المصرى ·

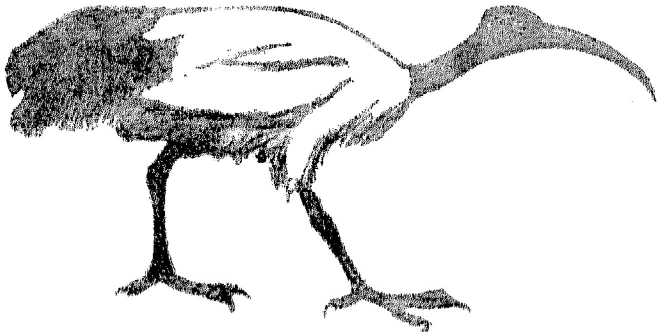
★ ★ ★



والنوع الأبيض من هذا الطائر يعرف أيضا باسم بلشون الغيط



وقد أشار الأمير فى رحلته للبلشون الأرجوانى ، والبلشون الأسود .



ابو منجل ويسمى أيضا المقدس (بتشديد الدال وكسرها)



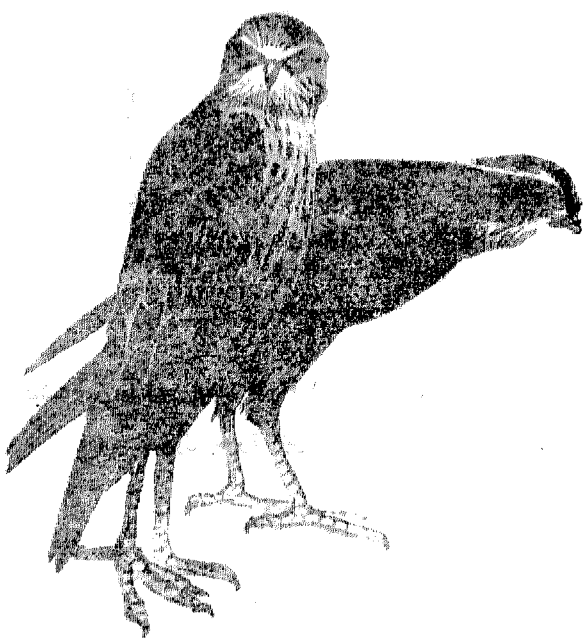
ابو ملعقـة



البشاروس ويسمى أيضا النحام (بضم النون وتشديدها)
وجده حول بحيرة المنزلة وفى جزرها ·



الغاق أو غراب البحر وجده الأمير ردولف بكثرة في جزر بحيرة المنزلة



مرزة الوديان أو مرزة البطائح ـ طائر جارح

Moor buzzard شاهده الأمير فى جزر بحيرة المنزلة ٠



النسر أبو ذقن



الحداة ـ وكانت من الطيور الجارحة المنتشرة جدا فى مصر لكن اعدادها قلت الآن



النسر أبو أذن (أبو ودان) وقد أشار اليه ردولف بالنسر الاصلع



النسر الأسمر ويطلق عليه أحيانا العنقاء

ماذا أضافت الرحلة لتاريخ عصر اسماعيل ؟

حظى عهد الخديو اسماعيل باهتمام بالغ من الدارسين لأسباب عدة ، لعل أهمها رغبة الخديو فى نقـل مظـاهر الحضـارة الأوربية الى مصر لتكون قطعة من أوربا ، واهتمامه بتدعيم استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، وامتداد الادارة المصرية فى عهده لمساحات واسعة فى افريقيا خاصة ، فقد رفع العلم المصرى على مملكة أونيورو المتـاخمة لبحيرة ألبرت شرقا سنة ۱۸۷۲ · وأعلن ملك أوغندة ولاءه لحكومة مصر وتم توسيع نطاق الادارة المصرية فى مديرية خط الاستواء بعد ذلك وضم كل منطقة البحيرات ، وضم زيلع وبربرة سنة ۱۸۷٥ ، واعترف الانجليز بسيادة مصر فى الصومال · وكانت كل هذه المنـاطق تعـد مديريات أو محـافظات مصرية ··· الـخ ·

لقد كان عصر اسماعيل ــ اذن ــ عصر توسـع · كل هذا معـروف مطروق ، لكن هذه الرحلة تضيف الى معارفنـا التاريخية أبعـادا طريفة ، فقد انتشرت فى مصر فى ذلك الوقت الطرق الصوفية ذات الطابع الجهادى ، حتى وان كان هذا الطابع مظهريا أو غير حقيقى · والطابع الجهـادى يخالف تماما روح الطرق الصوفية فى مصر · وعلى أية حال فان الطابع الجهادى لهذه الطرق الصوفية فى مصر آنذاك لم يخـرج عن كونه تغييرا فى تصميم رقصات الدراويش (وهـو ما يسمى حلقات الذكر) على النحو التالى :

ــ بينما يدور الدرويش دورانا عنيفا حول نفسه يرفع احدى يديه الى أعلى باسطا كفه ، بينما يمد يده الأخرى للأمام ، وقد قبض كفه بشدة (كأنه يقبض على سيف ، وهو فى الحقيقة يقبض على الهواء) ، وهذا التصميم الفنى للرقصة (لحلقة الذكر) يعنى أن الدرويش ــ بيده المقبوضة ــ يحارب الكفار ، وأنه فى مقابل ذلك يطلب عطايا الرحمن التى يتلقاها بيده المبسوطة (يد مبسوطة لتلقى العطايا ــ ويد قابضة على سيف وهمى) ·

ــ عندما تأخذ الجلالة أحد الدراويش وتعتريه (الدوخـة) نتيجة الدوران الشديد حول نفسه ، فانه ينطلق الى شـوارع القاهرة وحواريها صائحا : الجهاد ·· الجهاد ضد الكفـار ·· الموت للكفار ·· وهكذا ·

لقد وظفت الدولة المصرية اذن الطرق الصوفية لخدمة أغراضها · لاضفاء طابع جهادى على التوسع المصرى فى أفريقيـا · لقد لعبت الطارق

فى مصر دور الوسيلة الاعلامية لصالح الدولة ، وهو دور ــ على أية حال ــ لا يتناقض مع طبيعتها ٠

★ ★ ★

وقد تعرضت القناطر الخيرية لعملية ترميم واصلاح فى عهد اسماعيل ، وقد زار الأمير ردولف هذه القناطر وردد ما كان يردده أعداء مصر فى ذلك الوقت وهو أن سلبيات هذه القناطر أكثر من ايجابياتها ، وانها مشروع غير اقتصادى لأن ما أنفق عليها يفوق فوائدها ٠٠ الخ ، وقد أصبح معروفا أن القناطر الخيرية من أعظم المشروعات التى أنشأها محمد على ٠

القدس الشريف :

سنتناول فى مقدمة الجزء الثالث من هذه الرحلة بالدراسة المفصلة شيئا ما ــ ما تعرض له الأمير من نقد مرير لقصص اليهود المتعلقة بالأماكن المقدسة فى فلسطين ، وما قرره من أن الاسلام هو الأمين على مقدسات القدس لأنه دين ــ على حد تعبيره ــ يضم بين دفتيه كل الأديان السابقة عليه بصورة نقية بعيدة عن الخرافة ٠

أما الذى يعنينا الآن ، فهو أن الأمير كان يضع العهد القديم نصب عينيه وهو يجول فى فلسطين ، بل حتى وهو يجول فى مصر ، فقد كان مهتما بالبحث عن اسم فرعون موسى وعن مواضع الخروج (خروج اليهود من مصر) ، وكان مهتما بالآثار المحيطة بنهر الأردن وما يقال له قبر موسى عليه السلام ٠٠ الخ ٠ لقد كان ينظر للعهد القديم ككتاب تاريخ ، رغم انه اعتبر بكاء اليهود عند حائط المبكى نوعا من أنواع « التعصب والخرافة » ٠

ويهمنا أن نقول ان النقد الموجه لروايات العهد القديم أكثر من أن يدخل تحت حصر ، لكننا نفضل هنا ــ لأسباب علمية ــ الرجوع لكتاب « نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم » الذى جمعه ونشره جيمس بريتشارد (عربه وعلق عليه د٠ عبد الحميد زايد ٠ وراجعه محمد جمال الدين مختار ــ ونشرته هيئة الآثار المصرية) ، فالحقائق الأساسية التى سيطالعها القارىء فى السطور التالية يمكن الوصول اليها فى مقدمة معرب هذا الكتاب الآنف ذكره ٠ « لم يأت كتاب العهد القديم وحيا كما لم يكتب دفعة واحدة ٠٠ وهو عبارة عن سجل تاريخى اختلف الناس فى أقسامه وعدد أسفاره » ولما كان عدد حروف اللغة العبرية اثنين

وعشرين حرفا ، فان عدد أسفار العهد القديم عددها اثنان وعشرون ، بينما يرى آخرون انها اربعة وعشرون سفرا ، ويميل فريق ثالث الى أن عدد الأسفار هو تسعة وثلاثون سفرا ٠ وقد تطلب وضعه حوالى الف عام ٠

واللغة العبرية ليست هى اللغة الأولى أو اللغة الأم للعهد القديم ٠٠ وقد فكر اليهود فى جمع الموجود من الأسفار المقدسة ســـواء المحفوظ فى صدور الناس أو المدون ٠٠ ولا تتفق التـوراة السامرية التى ترجع القرن الرابع قبل الميلاد مع الترجمة السبعينية للتوراة الا فى الثلث فقط ٠

وقد تمت الترجمة السبعينية أيام بطليموس الثـانى فيـلادولفوس (٢٨٥ ــ ٢٤٧ ق٠م) وترجع تسميتها بالترجمـــة الســـبعينية الى أن القائمين عليها كان عددهم اثنين وسبعين عالما (ستة من كل سبط من أسباط بنى اسرائيل ٦ × ١٢ سبطا = ٧٢) ، وتمت هذه الترجمة فى الاسكندرية ، وهى ترجمة غير دقيقة ، ثم ظهرت ترجمات أخرى بعد ذلك ، وتطورت أسفار العهد القديم فى عصور مختلفة وتنقسم هذه الأسفار الى ثلاثة اقسام رئيسية هى : التوراة (توراة) والأنبياء (نبيم) والكتابات (كتوبيم) ، ولا توجد وحدة فى أسفاره التى امتد جمعها منذ ١١٠٠ ق٠م٠ تقريبا حتى القرن الثانى قبل الميلاد تقريبا ٠

وفى القرن التاسع عشر أظهرت الآثار المكتشفة امكانية اعادة العهد القديم الى أصوله فى حضارات الشرق ، وظهرت دراسات تثبت اعتماد العهد القديم على العقائد البابلية ، وقد أشار الدكتور فؤاد حسنين (١) المتخصص فى الدراسات العبرية أن التوراة الحالية العبرية ليست هى صحف موسى عليه السلام ، لأن العبرية لم يعـرفها موسى عليــه الســلام ولا عرفها اليهود فى عهده ، فموسى عليه السلام ولد فى مصر وتسمى باسم مصرى وتعلم لغة المصريين الهيروغليفية وتكلم بها وكذلك كل اليهود الذين كانوا فى مصر ، واذا كانوا يتحدثون لغة أخرى غير الهيروغليفيـة فان هذه اللغة لابد أن تكون الآرامية وليس العبرية ، واللغة العبرية مقتبسة من الكنعانية التى هى الأم لكل من العبرية والفينيقية والموابية ، فاللغة العبرية اذن لاحقة جدا لموت موسى عليه السلام ، فصحف موسى والتوراة لم تدون بالعبرية بل بالمصرية القديمة ، ويرجع الدكتور فؤاد حسنين أن التوراة الحقيقية وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التى دعا اليها أخناتون ٠

---

(١) فى كتاب التوراة الهيروغليفية ، القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، ص ٥٧ ــ ٥٩ ٠

وكل هذا التحليل لا ينفى عقائد المسلمين الراسخة فى أن التوراة من عند الله سبحانه وتعالى · ولكن أين هى ؟ فاعتبار العهد القديم مصدرا وحيدا للحقائق التاريخية القديمة فيه تجاوز خطير للمنهج العلمى السليم ·

النساء فى رحلة صاحب السمو :

مر الأمير ردولف مرورا عابرا على جزر البحر الأدرياتى والساحل اليونانى ، فأبدى ملاحظات عابرة عن النساء ، وفى مصر لم تسترع النساء كثيرا انتباهه ، لكنه توقف أمام بعض الرقصات الشعبية ولم يكن رأيه فيها طيبا بأية حال ، ولما غادر مصر متوجها الى يافا فالقدس فبيت لحم نجده يتوقف كثيرا أمام جمال نساء بيت لحم ، ولم يعفهن من التمعن فى مفاتنهن حتى وهن راكعات ساجدات باكيات فى الكنائس والأماكن المقدسة الأخرى ·

ويقول عن الشابات فى الجزر اليونانية ان فيهن ذوات « وجوه جميلة صبوحة ، أما العجائز منهن ـ فياالهول منظرهن ، « اذ لا يطيق النظر اليهن الا أهل الجنوب الأوربى » ! ·

يقول الأمير : « لم أر أبدا نساء أجمل من نساء بيت لحم · أهذا العدد الكبير من النساء الجميلات فى مدينة واحدة ؟! ·· ان المرء لا يستطيع أن يلاحق بعينيه هنا كل النساء الجميلات · عاصفة من الجمال تتلوها عاصفة أخرى · انهن نماذج من العذراء مريم النبيلة · » (ص ٣٠٦ من النص الانجليزى ـ ص ٩٣ ج ٣ الترجمة العربية) · ولم يعف الرجل جميلات بيت لحم من نظراته المتغلغلة حتى وهن يصلين ويتعبدن · يقول وهو يراقبهن فى مصلى المهد : « وتزاحمت الجموع أمامنا على المواضع المقدسة تحت الأرض ، وركعت بعض نسوة بيت لحم الجميلات جمالا مدهشا ـ على الصخرة الجرداء · لقد كن متألقات تألقا غريبا فى ضوء المصابيح الباهت ·· » ·

وتقدمت احدى نساء بيت لحم بالتماس للأمير لم يحدثنا عن محتواه ، لكنه وصفها بأنها شابة جميلة ، وراح الرجل يتابعها بعينيه ـ كما قال هو ـ وهى مقبلة لتقديم الملتمس ، كما راح يتابعها بعينيه ، وقد استدارت ، ولم تكف عيناه عن ملاحقتها حتى اختفت من أمام ناظريه · لقد رأى فيها جمالا هادئا ، كما قال هو ـ كجمال العذراء مريم ·

ولا نتوقع أن يتغلغل الأمير ردولف فى الحياة المصرية كما تغلغل الرحالة بيرتون مثلا (صدرت ترجمة رحلته فى سلسلة الألف كتاب الثانى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب) • ذلك أن الأمير أتى لمصر فى موكب رسمى ، وكانت كل زياراته وتجولاته واضحة فى النور • لذا ، فرحلته كانت فى مجال وصف المعالم الجغرافية والأثرية واستدعاء المعلومات التاريخية ، أكثر مما هى مفيدة فى وصف نفسية الشعب وتوجهاته •

لقد ذكر ردولف على سبيل المثال أنه « لا توجد اشارة بل أدنى اشارة لوجود طبقة المومسات أو نساء المتعة بالاسكندرية ، تلك الطبقة التى نعرفها فى فينا أو بين •• وغالب المومسات فى مصر ــ كما قيل لى ــ أتين من النمسا •• » ويبدو أن الرجل الطيب صدق ذلك •

الأزهر والتعليم الدينى فى رحلة الأمير ردولف :

أشرنا الى أن الأمير أشار فى رحلته الى الأزهر الشريف باعتباره معملا لتفريخ التعصب فى العالم الاسلامى وليس مصر فحسب • ونحسب أن هذا الرأى من قبيل الفكرة الثابتة التى حملها الأمير معه ، ولم يكن ما رآه ليغير شيئا حتى لو كان مناقضا تماما لفكرته هذه • ولم يكن الأزهر الشريف فى حالة ازدهار فى الفترة التى زاره فيها ، فالمؤرخ عبد الرحمن الرافعى يحدثنا أنه : « لم يكن لعلماء الأزهر فى عهد اسماعيل شأن كبير فى تطور الأحوال العامة سياسية كانت أو اجتماعية ، فقد ضعفت مكانتهم عما كانوا عليه أيام الحملة الفرنسية وأوائل عصر محمد على » لكن الرافعى ــ على أية حال ــ يعود فيقول انه « يلوح له أن الأزهر ومن اتصل به من العلماء والطلبة قد استردوا فى عهد اسماعيل شيئا من المكانة التى كانت لأسلافهم من قبل ، فقد نال بعضهم مكانة عالية ومنزلة سامية فى الهيئة الاجتماعية • »

ويمكن ارجاع مثل هذه الأفكار المتعصبة التى حملها الأمير وغيره ضد الأزهر الشريف الى ما عرف عن الأزهر من دور جهادى أثناء الحملة الفرنسية على مصر وتصدى الأزهر للدفاع عن رأى الجمهور باجبار السلطان العثمانى على تولية محمد على أمور مصر ، وقيام الأزهر بالتوعية الدينية •

ولا نتوقع ــ كما سبق أن المعنا ــ أن يصل الأمير ردولف لجوهر الأمور ، على نحو ما وصل رحالة خبير كرتشارد بيرتون الذى زار مصر

سنة ١٨٥٢ وأشار بصراحة ووضوح الى أن الأزهر الشريف والتعليم الجاد هما الخطر الحقيقى – على المستوى الشعبى – اللذان يتحتم على أى تدخل أجنبى فى مصر أن يواجههما ، أما قوى الدراويش أو التنظيمات الصوفية فلا خطر منها ، أما الأمير ردولف فقد أخذ الأمور وفقا لظواهرها فاعتبر حلقات الذكر التى يقيمها الدراويش دليلا على تعصبهم وخطورتهم واحتمال قيامهم بحركات جهادية ٠ وحقيقة الأمر أن الأزهر وعلماء مصر بذلوا – ولا زالوا – جهودا مضنية لتنقية الحركة الصوفية فى مصر من كثير من الخرافات والأمور الخارجة عن الدين ٠

كلمـــــة اخيـرة :

من الضرورى أن ننوه هنا الى عدة أمور مهمـة :

١ – أن الأمير ردولف هو صاحب السمو الامبراطورى والملكى، وانه لم يكن وليا للعهد ، وبالتالى ليس أرشيدوق من الناحية الرسمية ، ومع هذا فقد عرفت رحلاته برحلات الأرشيدوق ٠

٢ – كتب الأمير رحلتـه بأسـلوب انجليزى سلس لكننا لم نستطع الاستدلال على المقابل العربى لبعض القرى المصرية والفلسطينية ، فكتبناها بالحروف اللاتينية كما هى دون ايراد المقابل العربى ٠

٣ – مجمل أفكار الرحلة لا تصدم القارىء العربى ، ومع هذا فقـد أورد الأمير بعض الأفكار غير الصحيحة أو التى لا يرضى عنها القـارىء العربى فعلقنا عليها فى الصفحات نفسها ، وأفردنا جانبا للتعليقات المفصلة عن كل فصل بآخر الكتاب ٠

والله من وراء القصـد ٠٠٠٠

د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصـــل الأول

الاستعداد للرحلة ــ مغادرة فينا ــ السـفينة ميرامار ــ ميناء ميرامار ــ كورفو ــ زانطه ــ الطراد الروسى ــ حديث عن السواحل الالبانى ــ حديث عن ساحل استيريا ، زيارة دير وكنيســة أورتوذكسية ــ وصف اهل الشرق الادنى (يدخل فيهم اليونانيون) ــ تعرض السـفينة لعاصفة ــ القمامة والرائحة النتنـــة فى زانطـة والســاحل الدلماشي ــ أهل زانطة والثرثرة عــلى المقــاهي ــ كاهن المعبــد يصـطاد الأرانب ــ جبــال كريت ــ سواحل مصر المقدسة ــ رسـوم الفنــان المـرافق للرحلة ــ تعليقات المترجم ٠

اتخذت القرار للقيام برحلتى لبــلاد الشرق بسرعة ٠ وعلى عجل تم الاعداد لها ٠ فتصفحت تصفحا غير وئيد كتبا عن الرحلات لبلاد الشرق ، وقبل أن تبدأ الرحلة بأيام قلائل ســبقنا متاعنـــا ، كما سبقنا المسئول عن الثياب ومعــه كل ما يلزمنا ، والخدم والبنادق (١) وقدر كبير من الــذخائر وعــدد من الــكلاب الى تريست Trieste ، حيث كان اليخت ميرامار فى انتظارنا ليكون رهن اشارتنا ٠

وفى التاسع من شهر فبراير تجمعت مجموعتنا المسافرة فى المحطة الجنوبية فى فينا Vienna (٢) فى مساء يــوم شتاء قارس البرودة فالجليد يغطى الطــرقات ، والســحب

الكثيفة تحجب السماء • انه جو كئيب لكنه ملائم للابحار ، فجنسنا الاوربى البائس تعود ــ فى غالب الاحيان ــ على تحمل هذا المناخ الغادر •

وكنت قد عدت من رحلة سريعة وطويلة للغرب الاوربى البعيد منذ يومين لأودع صديقا صدوقا لمتواه الاخير •

وبهذه الأفكار الحزينة خطوت لأركب حافلتى • لقد خيم البرد الشديد الذى نتحمله الان وحدنا ــ أملا بان نستمتع عما قريب بدفء الشرق المتوهج • وتحرك القطار نافثا دخانه ــ بعد أن أطلق صفيرا ــ من المحطة ، فودعنا ليل حالك السواد كالقار ، وجليد متساقط ورقائق ثلج غطت كل شيء ، وعواصف •

لقد تجمعت مجموعتنا الصغيرة المسافرة فى عربة النوم بالقطار ، وكانت هذه المجموعة رغم قلة عددها تتكون من أشخاص محبين للرحلة والمغامرة هم عمى دوق تسكانى الأكبر وكونت فالدبرج Waldburg والقس أبوت ماير Abbot Mayer والماجور فون اشنباشر Von Eschenbacher والكونت جوزيف (يوسف) هويوس Hoyos ، والفنان بوسنجر Pausinger وأنا ، وكنا جميعا فى طريقنا للحج (٣) لبلاد الشرق ، وقد صحبنا الكونت هانز فلتسيك Hans Wilczek الى ساحل البحر ومنه اتخذ طريقه الى ايطاليا •وسرعان ما انسل الواحد اثر الواحد من مجموعتنا لينعم بالراحة ، ولم يبق الاى وفلتسيك فرحنا نتجاذب أطراف الحديث حتى غلبنا النوم أخيرا بعد أن أوغل الليل •

لقد أيقظنا البرد الثلجى فى الصباح الباكر والتصق بعضنا ببعضنا الآخر فقد كنا نرتعد • وقد أخبرنا الحارس أن الترمومتر يشير الى عشرين درجة برودة(؟)(٤) وأن رقائق الجليد التى تتخذ شكل سعف النخيل فوق النوافذ تؤكد

صحة ما يشير اليه الترمومتر • لكننا سننعم قريبا بنخيل أخرى متألقة فى صيف مصر الهادىء •

وشمخت أدلسبرج Adelsberg وسط الجليد الكثيف وشكلت آخر غابات للصنوبر منظرا جميلا من مناظر الشتاء ، ومكنتنا السماء الصافية من رؤية منظر على البعد للمنطلقة من كارست Karst الى جبال الألب • لقد كان الجليد فى كل مكان ، فحتى فى نابرسينا Nabresina كنا لازلنا نرى بقعا بيضاء ، الا أننا كلما توجهنا للجنوب توهج النور ، فغدت السماء أكثر زرقة وأشعة الشمس اكثر دفئا ـ وكان هذا الدفء وهذه الزرقة هما أول تحية نتلقاها من الجنوب الشمسى • وامتد البحر أمام نواظرنا رائعا وهادئا وناعما كصفحة بركة جبلية صقيلة كمرآة • لقد كان البحر الأدرياتى Adriatic أزرق دافئا رائعا ، ولم يكن كالمحيط الرمادى الكئيب الذى كنت قد رأيته مؤخرا(٥) • وقد كان اثنان من رفاق رحلتى يريان هذا الجمال الطبيعى الرائع للبحر الأدرياتى للمرة الأولى فى حياتهما ، فراحا يحملقان فى المناظر بدهشة واعجاب •

لقد توقفنا عند محطة ميرامار Miramar ثم اتخذنا سبيلنا الى ميناء صغير • لقد كان منظر القلعة المقامة بموقع رشيق فوق صخور تبرز من المياه ذات الأمواج الصاخبة وبين خضرة الجنوب التى لا تنضب ـ أكثر المناظر جدارة بأن تكون موضوعا للوحة فنان • وبالقرب من هذه القلعة رست سفينتنا التى تحمل الاسم نفسه (ميرامار) ، ولما نظرت لميناء ميرامار طافت الذكريات الجميلة بخاطرى كأنها حلم ، لقد رأيتها وكأنما ألتقى بصديق قديم فقد سبق لى أن قمت برحلتين اليها (الى ميرامار) •

وانتظر قارب عند نهاية السلم وحملنا سريعا للسفينة ، وعند الممر وقف القائد روديجر Rodiger قبطان الانقاذ

البحرى وصعدنا لظهر السفينه ، بينما يعزف السلام النمساوى المجرى واستعرضنا مجموعه العاملين على ظهر السفينه الذين اصطفوا لاستقبالنا • وكان المسئولون (الضباط) الاخرون هم الملازمانت ، كونت كورنسكى Chroinsky (الذى سبق أن قمت بصحبته برحلتى الى اسبانيا) بالاضافه الى هامن Hahn وساكس Sacks ورزنكيك Resmeck وقد صحبنا الدكتور هيرش Hirsch كطبيب للرحلة ، وكنت قد عرفت الدكتور هيرش هذا خلال رحله سابقه الى كورفو Corfu (٦) •

لقد ألقيت نظرة عجلى على السفينة جعلتنى أكن اعجابا لها ، وارتبطت كبائنها وجناحى الخاص ، وكل موضع بها ، فى ذهنى بكثير من الذكريات السعيدة •

وقد صحبنا فيلتسيك الى السفينة ، وكان قد قضى معى منذ عامين أياما طيبة ، وتناول معنا طعام الغداء ثم تركنا عائدا للشاطىء ، وبعد دقائق قليلة كان يلوح لنا بتحية الوداع من شرفة القلعة •

وبقينا جميعا فوق سطح السفينة نمتع البصر بالمنظر الجميل ، فقد كان ضوء الشمس يغمر قلعة دينو Duino وميرامار ومرتفعات كارست Karst شديدة التحدر ومدينة تريست ذات الموقع الجميل ، وبدت هذه المناظر أول صورة باعثة على البهجة فى رحلتنا هذه • ومررنا بالقرب من قطع الأسطول النمساوى والطراد الروسى أسكولت Ascolt . وكانت السفن الحربية حتى وهى تحيى تبدو مستعدة للقتال (٧) ، وانسابت من سفينة الأدميرال النمساوية ألحان نشيدنا الوطنى •

ولما اقتربنا من الطراد الروسى أرسلنا بتحية وقور — لكنها جميلة « ترنيمة القيصر Hymn to the Szar » •

وسرعان ما بدأت تريست تتلاشى أمام نواظرنا فقد أبحرت سفينتنا جنوبا على طول ساحل استيريا Isterian Coast (٨) وبقينا لبضع ساعات فوق سطح السفينة • وكانت درجة الحرارة — حقيقة — منخفضة ، لكن الجو كان بالنسبة لنا — مبهجا بعد أن تركنا شتاء وسط أوروبا • وقد شغلنا أنفسنا في فترة ما بعد الظهر بترتيب الدبابات ، وأفضى كل منا بما في صدره للآخر وتالفنا تالفا اجتماعيا لطيفا بعد ان تركنا سطح السفينه ، وتناولنا عشاءنا في وقت متاخر مما جعل سره المساء تنمضى دون ملل ، فأدركنا وقت النوم سريعا •

وقد ادخر لنا اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سماء ذات سحب داكنة ، ورياحا وبحرا هائجا وبرودة ، فاصبح معظم المسافرين مرضى ، وقد ترك كل هذا اثرا واضحا على كثير من المسافرين فتعكر مزاجهم فجلس الجمع الجميع — مرضى واصحاء — على سطح السفينة وراحوا يراقبون الامواج الهائجة لبحر مخادع لعوب • وفي حوالى الساعة العاشرة صباحا تبدى لنا جرف ليسا شديد الانحدار ، ونظر كل نمساوى نظرة مشوبة بالعاطفة والشجن لتلك الجزيرة التى تعد شاهدا على الأعمال البطولية النبيلة لبحارتنا •

وفيما يتعلق بمنظر ليسا Lissa فلا شيء فيه يجذب الانتباه • انها جزيرة قاحلة ذات جروف شديدة الانحدار وتلال متشابهة لا تباين بينها ، وليس فيها ما يحث الفنان المبدع على الابداع •

وعلا موج البحر بعد الظهر ، وأبرقت السماء وأرعدت مساء ومضى اليوم رتيبا فقد منعتنا حركة السفينة واهتزازها من قطع الوقت بالقراءة أو الكتابة ، كما كان مسارها فى عرض البحر بعيدا عن الساحل ، ومضى الليل أكثر رتابة ،

ولم يكن امام المصابين بدوار البحر من حل سوى البقاء فى أماكنهم بينما تمضى الساعات فاترة مملة ، واهدانا اليوم الثانى عشر من شهر فبراير عند الشروق بحرا اكثر هدوءا . ولما اسرعنا الى سطح السفينة حيتنا ـ بمنظرها ـ قمم الجبال الألبانية (٩) التى كستها ثلوج كثيرة .

ولجبال ألبانيا جاذبية خاصة للمسافر ، فمن السفينة تراها تشكل طبقات كالشرفات وتجذب البصر بوديانها الصخرية الجميلة ، وتثير جروفها الحادة التى تهبط شامخة حتى البحر اعجاب الرائى .

وبالنسبة لى فان جبال الجنوب كانت أكثر جاذبية بكثير من جبال الألب فى وسط أوربا ، فجبال الجنوب بتكويناتها ، وما يحيط بها من ضوء ودفء تشكل مع زرقة السماء العميقة وخضرة الجنوب منظرا خلابا ، يجذبنى أكثر من غابات الصنوبر ذات المنظر النمطى التى تظلها سماء مظلمة كئيبة صبغها الرصاص بلونه .

ولا يرى المرء على الساحل الألبانى الا قليلا من المدن الفرادى ، اذ يلمح هنا وهناك منازل مسطحة الأسقف مطلية بألوان فاتحة تشكل قرية أقيمت على مدرجات فوق المنحدرات والأماكن غير المنحدرة بين أشجار السرو (١٠) العابسة وأشجار الزيتون الخضراء التى اعترى خضرتها لون رمادى .

وقبل الظهر ظهرت لنا جزيرة كورفو Corfu اليونانية الجميلة والى الغرب منها جزر مرليرا Merlera (١١) وجزر فانو Fano ، وهى جزر صخرية صغيرة ، والممر بين جزيرة كورفو والبر من أجمل الممرات فى العالم بلا شك . والى الشرق تمتد الجبال الألبانية حول حوض بوترينو Butrino وواديه ، وثمة بحيرة جميلة بين الجبال فى وسط وادى بوترينو ، ويحيط بها (أى بهذه البحيرة) غابات

ممتدة من البلوط ومستنقعات ضخمة ، وتشكل هذه النابات وتلك المستنقعات تناقضا حادا مع الجبال الجيرية الجرداء التي يرى المرء قممها الشامخة في خلفية الصورة على البعد .

والى الغرب يرى المرء ناحية اليمين الجزيرة الخضراء بتلالها ذوات التكوينات الجميلة وجبلها الشامخ دكا Decca وأشجار البلوط والزيتون ، وأشجار السرو الكثيرة وأشجار الفاكهة المزهرة ، وتتناثر فى كل مكان فى الجزيرة المنازل البيض الباهرة والقرى . حقيقة ، ياله من تناقض ، فاذا نظرنا للشمال وجدنا البر الألبانى غير المزروع والذى يسكنه جبليون محبون للقتال ، بينما الى اليمين تقبع كورفو المزدهرة التى حولها اليونانيون المحبون للتجارة والمتسمون بالمرونة الى حديقة غناء .

وعبرنا خليج ابسا Ipsa (١٢) ورأينا قلعتين ومدينة كورفو ذات الموقع الجيد على قنة الجبل الداخلة فى البحر وفى موقع متوسط على هذه القنة .

وكلما رأيت كورفو استولى هومر (١٣) على فكرى طوال فترة مرورى بين هذه الجزر الأيونية (١٤) ، وفى أيام صباى عندما كنت أقرأ الأوديسة (١٥) كنت أتخيل هذه الجزر خضراء يغمرها نور أزرق تحت سماء أشد زرقة ، وقد غمرتها أشعة الشمس الضاحكة فأضفت عليها لونا ذهبيا .

وتفاصيل المنظر ممثلة فى الأشجار المنتشرة فوق الصخور ، وقد تسلق فوقها اللبلاب فبدا كضفائر لها ، والشجيرات المزهرة والينابيع الرقراقة ، كل أولئك يذكر المرء بمناظر الباليه السحرية ، ويدعونى الى أن أطلب الصفح ان شبهتها ــ أى هذه المناظر ــ تشبيها دنيويا ، فغالبا ما يتوقع المرء أن يرى ديانا (١٦) وقد طوقت خصرها ولوحت برمحها الذهبى وهى خارجة من الدغل . لكنه كان

علينا ان نعود لارض الواقع ، فقد سارت السفينة ميرامار بالقرب من ساحل المدينه حيث كان يتحتم علينا التوقف لبضع ساعات للتزود بالفحم ، وكورفو التى اعتادت أن تكون هادئة مممنه فى الهدوء ، بدت الآن وكأنها تلبس لبوس الحرب ، ففى جزيرة فيدو Vido المواجهة لكورفو اقيم معسكر ، وامتلأت الجزيرة الصغيرة بحشود العساكر ذوى السترات الزرقاء • وكانت بعض السرايا تطلق النيران على الأهداف ، وراحت قوارب عديدة تنقل العساكر الى احدى البواخر ، وكما علمنا ـ بعد ذلك ـ فان احدى الكتائب كانت تعبأ فى الجزيرة لارسالها فى هذا المساء لليونان(١٧). لقد كان الهيلينيون يحلمون حلم البطولة ولم يكن أهل كورفو الطيبون أقل استثارة ، فقد ظنوا أن أيام ليونيداز (١٨) Leonidas سوف تبزغ من جديد •

وبينما كنا فى المرسى ، ظهر الدكتور نائبا عن القنصل الذى كان يعانى من وعكة صحية وكذلك ظهر خادم القنصلية Valet de place الذى كنت أعرفه فى ظروف سابقة ، وهو رجل ضئيل بشع المنظر ، ومن سوء الحظ أن هذا البشع كان من سلالة الاغريق ذوى الوسامة •

وقد فجع معظم رفاقى الذين لم يزوروا الجزيرة من قبل بالأخبار التى أفادت أن مرض الجدرى سائد فى المدينة • لذا ، فقد كان ممنوعا تماما أن ننزل للبر ، فقضينا فترة ما بعد الظهيرة فى نزهة فى زورق ملحق بالسفينة ، ومررنا بالقرب من المدينة ، وكانت المساكن القديمة المتزاحمة ، مقامة على مدرجات ، درجة تعلو درجة ، وكانت جدرانها بيضاء متألقة ونوافذها خضراء وأسقفها مستوية ، وكان طابعها العام يذكر المرء بايطاليا ومع هذا فكان ثمة طابع اغريقى معين مرتبط بكل ملمح من ملامحها ، ويزيد من قوة هذا الطابع الاغريقى ويوضحه تلك القباب المستديرة التى تعلو الكنائس الأورثوذكسية •

ولما مررنا بالسور الصخرى للقلعة الغاطس عموديا فى البحر سارت سفينتنا على طول الجانب الجنوبى لقنه الجبل الخارجيه منه والداخلة فى البحر، فرايناها قد عطتها الحدائق الفناء ! والفيلات الرائمات لاهالى كورفو الاغنياء ، ورأينا المقصر الريفى الملكى ذا الموقع الجميل والبنديكونيسى Pondikonisi وضاحية كاستدرادس Kastrades ، والى الأدنى منه ـ على الساحل بين غابات أشجار الآس العطرية ـ تقبع بقايا (خرائب) معبد اسكولابيوس Aesculapius (١٩) القديم ، وواصلت سفينتنا الابحار الى خليج كارداكيو Karadakio الذى يعوق مدخله وجود جزيرتين صغيرتين ، وفى المقدمة صخرة ضخمة تغطيها أشجار البرتقال والسفرجل والسرو ، وضريح اغريقى قديم ومنزل لراهبين تابعين لمذهب القديس بازل Basil وتسمى هذه المنطقة بونديكونيس Pondikonis ، وكانت فى أصلها سفينة أوديسيوس Odisseus (٢٠) ثم سخطها بوسيدون Poseidon (٢١) فجعلها حجرا :

لكن صانع الزلزال اقترب منها ،
وصفعها بيده المفلطحة صفعة حاسمة ،
وسخط السفينة حجرا ،
وغرسها هناك فى هذه البقعة ،
لتكون شاهدا ،
على أن الخير قد ولى !

لقد تذكرت هذه الأبيات الشعرية وغرقت فى أفكار بعضها عن أيام الكفاح ودراسة الألعاب الرياضية ، وبعضها عن العالم السحرى للاغريق القدماء ، وخطونا فوق الجزيرة وتسلقنا جانبها .

وقد حيى راهبان الغرباء القادمين ، وكان الراهبان يلبسان عباءتين زرقاوين مهترئتين ، وكانا حافيين ، وشعرهما طويل ، ولحيتاهما مهملتان غير مرجلتين ٠

وكانت الكنيسة على الطراز الأورتوذكسى الحقيقى ، فهى مقسمة الى قسمين يفصل بينهما حاجز مذهب ببذخ ، وعلق على جدرانها صور مختلفة لقديسين وزخارف مذهبة وبعض الكتابات الاغريقية ، وأمام الكنيسة أشجار فاكهة مزهرة تبهج العيون القادمة من أرض الشتاء فى الشمال ٠ والمنظر من الجزيرة فى اتجاه كورفو والبحر منظر جذاب فاتن ، وموطن مناسب للنساك الحالمين ٠

وعلى أية حال ، فقد كان يعوز هؤلاء الرهبان البؤساء النظرة المتأملة ، كما كان يعوزهم روح الورع ، وانما كانوا فى حالة ذهول كامل ، وربما كان هذا لرتابة الحياة التى يحيونها ٠ وكان الراهب الأكثر شبابا عاشقا للقطط ، وكان معه رهبان آخرون يبدون وكأنهم يكادون يموتون جوعا . وكانوا يموءون بشكل يدعو للشفقة والرثاء ، وكانوا يتبعون خطى هذا الراهب الأكثر شبابا ٠ وكان فى الجزيرة المواجهة مبنى له برج يقطنه نساك معتزلون ٠ وبعد زيارة قصيرة تحولنا الى مجموعة صيد فتجولنا بقواربنا فى خليج كارداكيو Kardakio الضحل ٠

وتبعثر جمع طيور البلشون (٢٢) (مالك الحزين) والغاق (٢٣) والغواص (٢٤) والبط والنورس (٢٥) عند محاولتنا الاقتراب ٠

واليونانيون ــ مثلهم فى ذلك مثل الايطاليين ــ يقتلون كل شىء ويبيدونه ، لذا فرياضة الصيد فى هذه المناطق ليست متعة أكيدة ٠ وقد نجحت ــ بعد محاولات عديدة ــ فى اسقاط أحد طيور الغاق ، وابتهاجا بهذا وجهنا وجوهنا صوب الوطن (٢٦) ٠

ولقد كان فى رؤيتنا لسهل بينيزا Benizza الأخضر الجميل ، وجبل هوجيوى دكا Hogioi Decca ذى القمة الشامخة — خير عزاء لنا عن فشلنا فى الصيد ، وسرعان ما عدنا الى سفينتنا ميرامار • لقد بدأ الليل يرخى سدوله ، واصبحت البرودة شديدة ، وبعد العشاء كانت فى انتظارنا ليلة كئيبة بعد هذا النهار الهادىء •

واستيقظت مبكرا صباح الثالث عشر لأتحقق — بعد أن أصابنى غثيان غير قليـل — من أن كل شىء يدور حـولى ، فالمناضد والمقاعد والأسرة ، وكل شىء حولى كان يرقص ، فالسفينة كانت تدور وتهتز بشـدة ، وتصر صريرا مفزعا بفعل الأمواج الصاخبة •

وألقيت نظرة عجلى على العاصفة العنيفة ، لقـد كانت الأمواج ترتفع وكأنها جبال ويتحطم بعضها فوق بعض ، ثم تصير زبدا بلوريا • وربما كانت العواصـف البحرية هى أشد المناظر التى تقدمها الطبيعة هولا خاصة اذا عاون البرق والظلال والسحاب فى رسم الصورة • لقد كانت السـحب آنئذ تغطى السـماء وراح ضـوء البرق يخطف البصر بين الفينة والأخرى •

لقـد كنـا بعيدا عن جزيرة سـيفالونيا Cephalonia التى كانت جبالها الشاهقة تعلو السحاب، وكان الجبل الأوسط — مونت نيرو Monte Nero — هو الأجمل والأكثر شموخا ، وكان الجليد الأبيض يكسو قمته • انه جبل اينوز القديم The ancient Ainos •

واعترانا الخوف من أن يغدو الجو أسوأ مما هو عليه ، فقد كانت المنحدرات الصـخرية متجهمة عابسـة ، وكانت الظلال رمادية غير ودودة •

وشقت سفينتنا الجسورة طريقها بين الامواج سقا حثيثا لكنه بطيء ، وفى منتصف النهار مرت على طول الحافة الغربية لجزيرة زانطة Zante (٢٧) ذات الجبال . ان منظرها فى حاجة لريشة فنان. ووصلنا الى طرف الجزيرة الجنوبى .

وازدادت قسوة العاصفة فقرر القبطان ان يعود بسفينته فى قناة زانطه (الممر البحرى بينها وبين البر) باعتبارها ملجأ آمنا وهكذا عدنا القهقرى بدلا من ان نقطع فى البحر مسافة اطول . لقد وصلنا ببطء لطرف الجزيرة الجنوبى ثم عدنا فى القناة (الممر البحرى) الواقع بين الجزيرة والبر الرئيسى المواجه لها . وسرعان ما قدمت لنا الجزيرة الحماية الكافية من الرياح الغربية العاتية . لقد كان البحر فى هذا الممر هادئا ، وبعد هذه المعركة الحامية مع الموج الصاخب انزلقت سفينتنا ميرامار الى المدينة (ميناء زانطة) .

لقد أصبح فى امكاننا الآن أن نلقى ــ بسرور ــ نظرة على المشهد الجميل ، فالى الشرق ، وراء الساحل المستوى ــ تقع أمام نواظرنا سلسلة الجبال اليونانية كلها . انها جبال البلوبونيز Peloponnosus ، بتراس Patras وآخيا Achaia ، واليس Elis ، وقد غطت الثلوج قممها جميعا (٢٨) . والى الجنوب يقع سيفالونيا أجرد مكشوفا Cephalonia (٢٩) ، أما زانطة فالى الغرب منا ، وكانت هذه الجزيرة الجميلة ــ كغيرها من الجزر ــ مزدانة بجبال صخرية ذوات تكوينات جميلة ، وان كانت سهولها خصبة ملأى بالبساتين ، وتلالها تجللها الخضرة . أما جزيرة كورفو Corfu فأكثر بهجة ، تعج بالزروع وتهفو النفس للاقامة بها أكثر مما تهفو للاقامة بغيرها ، الا أن زانطة هى « وردة الشرق » كما يقول الايطاليون .

لقد كانت مدينة زانطة تمتد معانقة الخليج بمنازلها البيض ذوات الأسقف المسطحة وكنائسها الكثيرة ، وأبراجها

تقف شامخة بجوارها ، والتل بقلعته الصغيرة ، وكانت كلها تنترش بساطا أخضر سندسيا • انه منظر جميل ! •

لقد رست سفينتنا حالا فى مواجهة المدينـة (زانطة) وكانت سفن اخرى عديدة قد فعلت ما فعلناه فلجات للميناء هروبا من العاصفة • لقد نزلنـا للشـاطىء بعد ان زارنا الطبيب • ولم تخل زيارتنا لزانطة من متعة فلها شخصيتها الخاصة بها ، فثمة بقايا من ازدهار غابر ، اما الان فشوارعها بغير استثناء ضيقة جدا ، وكثير منها يصعد لها المرء بدرجات (سلالم) ولا يمكن ان يمر بها الانسان الا سائرا على قدميه (لا تسمح بمرور الراكبين) ، والخنازير تتمرغ فى الساحات الرئيسية (الميادين) ، وتعج المدينة بروائح نتنه لا تطاق • وكثير من منـازلها ليس بهـا نوافذ زجاجيـة فليس ثمـة الا مغاليق تتأرجح فى الهواء ، ولا حلية أخرى ، وان كانت كثير من هذه المساكن ذوات طـرز معمـارية قديمة وجميلة تذكرنا بالقصور الايطالية ، أما الكنائس فزينة المدينة ، بل هى الملمح الأساسى الجميـل بهـا • انها أماكن العبـادة اليونانية ، التى تتبع المذهب الأورثوذكسى ومن الغرابة أن تكون أبراج أجراسها على نسق أبراج كنائس القديس مرقص Mark's ويلاحظ أن كهانها ذوو ثياب رثة • وكان هذا اليوم هو يوم الاحتفال بذكرى أحد القديسين اليـونانيين ، وراح المؤمنون يقبلون الأوعيـة التى تحفظ فيهـا الذخائر الدينية وكان شكل هذه الأوعية فظا خاليا من الذوق • لقد حدث هذا فى الكنيسة الكبرى •

ان التجوال فى المدينة (زانطة) يعطى انطباعا مشوقا • فاحدى الحقائق التى يكتشفها المتجول هى هذا الشبه الصارخ بين المدن من الداخل فى ثلاث ممالك أوربية جنوبية •

ففى زانطة يمكنك أن تتصور نفسك فى مدينة ايطالية أو أسبانية خربة ، حيث يمكن رؤية كل جوانب الحياة فى الطرقات • فأمام المقاهى العـديدة يجلس الرجال بقبعاتهم

ذوات الحواف العريضه وقد لفوا الشيلان من قماش مربع نفتنه حول اكتافهم ، وقد لبسوا ثيابا باليه ، وراحوا يتارجحون بكسل على مقاعد قواعدها من قش وللواحد منها ثلاث ارجل ، بينما فنجان القهوة موضوع امام الواحد منهم على كرسي أخر وقد آمسك كل واحد بسيجار · تارجح كسول وفنجان قهوة وسيجار ، وراحوا يثرثرون ويصحكون ويغمزون · ان حياة الناس وعاداتهم هنا متشابهة الشبه كله مع حياة الناس وعاداتهم في المدن الايطالية والاسبانية ، فهنا تجد القهوة والسجائر التركية والاعلانات اليونانية والكهنة بقبعاتهم المستديرة العالية ، وهناك تجد الشيكولاتة والسيجار الهافاني (من هافانا) ، ورجال الدين الكاتوليك بقبعاتهم ذوات الزوايا الثلاث ــ لا بأس من هذا الاختلاف ، فحقيقة الأمر أن الناس هنا وهناك متشابهون في عاداتهم واساليب حياتهم · ويمكنك أن ترى وجوها جميلة صبوحة بين الشابات . أما العجائز من النساء فيالهول منظرهن ، اذ لا يقدر على رؤيتهن الا أهل الجنوب الأوربي ·

لقد صعدنا الى تل القلعة بعد أن مررنا بطرقات مختلفة وبمنازل بائسة ونحن نركب عربة (دروسكية) لا تليق الا بمدينة ألمانية · لقد كان الطريق متعرجا منحدرا بشدة كما كان محفوفا عن أيامننا وشمائلنا بسياج من نبات الصبار وأشجار الفاكهة وبعض النخيل هنا وهناك ·

ولا يستطيع أحد الوصول الى القمة فالطريق ينتهي فجأة وتعوقه بعض أكوام من الحجارة · فكان يتحتم علينا أن نكمل ما بقي من الطريق سيرا على الأقدام ·

لقد كان التل غاصا بالجنود ، فهنا أيضا ، توجد كتيبة سبق استدعاؤها ، وقد شرح لنا القائد ــ وهو رجل مثقف عاش في باريس ــ بفرنسية سوية كل شيء ، فالقلعة مهدمة ، لذا فقد جعلوا الجنود في حظائر مدرعة وفي الأكواخ ·

لقد كان المنظر من القلعة يسترعى النظر ، فالى الشرق – عبر القناة (الفاصل المائى) يوجد الساحل اليوناني ، والى الادنى – عند اقدامنا – توجد المدينة ، وعلى طول الجانب الجنوبي للتل توجد حدائق زاهرة • وعند المنحدر الغربي للتل توجد تربة طفلية وتكوينات طميية صفراء ذكرتني بشدة بجبال مورسيا Murcia فى اسبانيا • وتمتد على طول الساحل الشرقى للجزيرة سلسلة من التلال المكسوة بالاشجار بينما تلال الساحل الغربي جرداء قاحلة ، وبين هاتين السلسلتين سهل عريض منخفض ، ويفصل هذا كله عن طرف الجزيرة الشمالى شريط ضيق مستنقعي يبدأ بالقرب من المدينة ، أما طرف الجزيرة الجنوبي فقد زانه جبل سكوبو Mount Shopo وهو كتلة صخرية مستقلة منفصلة عن بقية السلسلة كلها •

وبدا أننا غير قادرين على اشباع رغبتنا بالتمعن فى الصورة الحية الرائعة الكائنة أمامنا ، فتباين الجبال والتلال التى تكسوها الخضرة ومدينة زانطة نفسها ومياه الفاصل المائى (القناة) ذى الزرقة الهادئة ، والبحر العاصف فيما وراء البرازخ ، كل ذلك شكل أمامنا خليطا متشابكا مؤثرا جدا بحيث يصعب التأمل فى أى عنصر من عناصر المشهد على حدة • وبدا المنظر أكثر جلالا عندما تجمعت السحب الداكنة الرعدية فوق الجبال • واشتدت الرياح ولمع البرق ودوى الرعد وهطلت السماء بغزارة ، فجعلنا كل ذلك نعود سراعا الى ميرامار •

وفى صباح اليوم التالى لم يكن الموج مناسبا للابحار فقرر القبطان أن نقضى النهار – على الأقل – فى زانطة • فقررنا أن نصعد جبل سكوبو • ومن رصيف الميناء استقللنا عربة تجرها خيول صغير حجمها جدا ، فسارت بنا فى عدد من الشوارع وتجاوزنا آخر منازل المدينة وسرنا على طول الساحل – وسرعان ما انتهى الطريق الذى يمكن للعربة أن

تسير فيه فسرنا على الاقدام بين حقول وسدادات بين أشجار الزيتون وعبر ممرات مائية جافة حتى وصلنا لسفح الجبل • وقسمنا فريق التسلق الى قسمين • وقد قفزت متجاوزا أحد المساكن التي يقطنها بشر (٢٢) ثم صعدت منحدرا شديدا تنمو عليه شجيرات كثيفة ، ومازلت أصعد حتى وجدت نفسي على بعض الالواح الحجرية وأكوام الدبش •

لقد كان تسلق الجبل شاقا ولا يبعث على الارتياح ، فقد كانت الشمس تسفعنا بضراوة وكنا قد ارهقنا أنفسنا ــ دون مبرر ــ بحمل بنادقنا ، فقد كان صيد ذوات الأربع أمرا غير قائم أما الطيور فلم تكن كثيرة هنا خلا بعض طيور أوربا الوسطى التي لجأت الى هنا طلبا للدفء في الشتاء •

وفوق قمة الجبل يوجد معبد يوناني صغير بسيط وليس فيه ما يثير والى جواره مسكن الكاهن وخادمه ، وكلاهما ــ المعبد والمسكن ــ يتسمان بالقذارة والاهمال ويكادان يسقطان •

وبالقرب منهما مخروط صخرى ذو تكوين مميز ، ويبدو هذا المخروط الصخرى على البعد جديرا بالرؤية ، فقد استرعى انتباهنا عندما رأيناه ونحن في البحر في اليوم السابق •

وكان علينا أن نتسلق هذا المخروط الصخرى باعتباره أعلى نقطة فوق الجبل فزحفنا بشق الأنفس حتى وصلنا للقمة ووضعنا هناك علما مكونا من منديل جيب وعصا •

لقد كان المنظر ــ على البعد ــ جميلا جدا ، لكننا لم نمكث طويلا لنستمتع به ، لأن الاعصار البحرى أصابنا بزخات مطر شديدة • ودعانا القس لبيته لتناول جرعة نبيذ • وكان الرجل (القس) تبدو عليه سيماء الوقار بلحيته الطويلة وشعره المنساب كشلال ، وقدم لنا بطريقة ودودة

بعض الجبن الردىء جدا المصنوع من حليب الماعز وخبزا وبعضا من النبيذ الجيد جدا مما تنتجه المنطقة ، لكنه شديد المفعول مما ذكرني بجرعات النبيذ الشائعة في اسبانيا ٠ وكانت الغرفة التي استقبلنا فيها تشبه تماما الفوندا --- الاسبانية الصغيرة وقد غطيت أرضيتها بحصر مهترئة ، أما المقاعد فمكسورة ، والجدران عارية ، وهواؤها ثقيل كئيب رطب ٠ وتؤكد صورة العذراء المسودة على الجدار الوطنية اليونانية ٠

Ablackened Virgin on the Wall Vouched for the Greek nationality

وبعد أن تناولنا وجبتنا البسيطة استأذنا القس الكريم وهبطنا الجبل ٠ وتجاوزنا بعضا من مجموعات النخيل الجميلة وبين الأدغال الكثيفة والزهور والينابيع ذوات البقبقة كانت توجد بقع كالتي يتخيلها المرء عند قراءته للميثولوجيا الاغريقية (الأساطير الاغريقية) اذ كانت مناسبة لرياضة الآلهة المرحة ٠

ومرة أخرى عبرنا الحدائق لنصل للساحل ، وقضينا فترة ما بعد الظهر والمساء فوق ظهر السفينة ٠

وقد أجبرتنا التقارير عن أحوال الجو غير الملائمة الى قضاء يوم آخر في زانطة فكان لابد من تدبير أمر نزهة جديدة فبدأنا مبكرا في صباح الخامس عشر من الشهر في الاتجاه الى طرف الجزيرة الشمالى ، فاتجهنا في العربة نفسها التي أوصلتنا في اليوم السابق واخترقنا شوارع ثم قطعنا طريق الجزيرة المبسوط بشكل جيد والمحفوف بالحدائق ، وبعد ذلك كان عن أيامننا سلسلة جبال خضر وعن شمائلنا جبال جرداء وعرة ، ومررنا ببعض المنازل المنعزلة وبقرى صغيرة ٠ وقابلنا الفلاحون وهم يحملون نتاج حقولهم الى المدينة (زانطة) وكان بعضهم يسير على الأقدام أما غالبهم فكان يستخدم حميرا بائس منظرها صغيرة الحجم ، أو عربات

للواحدة منها عجلتان . لقد تأملتهم جيدا ، فبدوا لى على نحو ما جنسا ضئيل الحجم داكن الجلد والشعر أما ازياؤهم فلا هى جذابة ولا مبهجة ولا ملائمة فسراويلهم واسعة وينتعلون أحذية تشبه الأخفاف (جمع خف بضم الخاء) الدلماشية (٣٠) ، ويضعون على رءوسهم طواقى صغيرة أو قبعات عريضة أطرافها ، ويحمل كثيرون منهم بنادق للواحدة منها ماسورة واحدة .

وبعد ساعتين اقترب الطريق من الجبال فكانت عن أيامننا تنتهى الى بحيرة ضحلة ، بينما تتلألأ مياه الأدرياتيكى الزرقاء على البعد .

وتتلاقى الجبال عن شمائلنا بالساحل بجدار صخرى عمودى وينتهى الطريق عند قرية مشيدة على مدرجات منحدر جانب الجبل . والجبال الشاهقة التى أصبحنا عندها الآن قاحلة تماما من هذا الجانب فلا أثر للخضرة فى جلاميدها وجروفها شديدة الانحدار ، وانطلقنا من القرية سيرا على الاقدام حول قاعدة الجرف الشامخ الواقع بينها وبين البحر وسرعان ما وصلنا لطرف الجزيرة الشمالى . يا لروعة المنظر! لقد رأينا سيفالونيا Cephalonia الواقع صوب الشمال . وكان أمامنا مباشرة حوض واد ضيق تنمو فيه غابة بلوط فى وسطها دير تكاد تخفيه الأشجار يقع بين تلين . واتجهنا الى كنيسة الدير التى كانت تغص بالتحف والصور حيث المذاخر المذهبة (أوعية وصناديق لحفظ الآثار والمحفوظات الدينية) وصور القديسين السوداء . وبدا الموضع مكانا أثيرا لدى الحجاج .

ودعانا بعض القسس الودودين لتناول الغداء فى الدير ، وعندما استفسرت عن الصيد فى هذه الأنحاء اقترح الرجال الطيبون بلسان واحد أن نقتنص الأرانب البرية . وبعد أن انتهينا من تناول الطعام بدأنا رياضتنا بارشاد

اصغر القسس الذى ارتدى عبـاءة قصـيرة وسروالا أزرق واسعا وخفا ، ووضع على راسه بيرتا biretta (قلنسـوه مربعة يعتم بها بعض رجال الدين) (٣١) وحمـل بندقيـه طويلة ، وتبعه كلبان من سلالة غير عريقة وفلاح ٠

ورحنا نصعد لأكثر من ساعة فى وهاد كئيبـة شـديدة الانحدار ، فلا يرى المرء عن يمينه وشـماله الا منحدرات ولا شيء غير حجارة ناعمة بيضاء تحير النظر لكثرة ما ينبعث منها من ضياء ، وكان يتخلل الصخور شريط ضيق من شجيرات ذوات خضرة داكنة وتركت الشمس بصماتها عليها كما هو الحال فى كثير من جبال المناطق الجنوبية فى دلماشيا واسبانيا ٠

وراحت الكلاب تتشمم حول الصخور وراح القس يقفز بنشاط من صخرة لصخرة ، حاملا بندقيته المحشوة مستعدا لاطلاقها ، لكن شيئا مثيرا لم يحدث ٠ وحامت بعض النسـور الضخمة عاليا فى الهواء ٠

وأخيرا وصلنا لقمة الجبل فتجلى أمامنـا منظـر البحـر الجميل ، وكان فى امكاننا أن نرى على البعد منظرا شـاملا للجبل بأحجاره وصخوره وقممه وأطرافه ٠

واسترحنا قرابة ربع الساعة ، وسمعنا طلقات متعددة تقصـف من مكان قريب ، وسرعان ما ظهـر بعض الفـلاحين يحملون بنادقهم ٠ لقد كانوا قد فقدوا أحد الأرانب البرية ٠

وفى طريق عودتنا ظللت متمسكا بالمواضـع المرتفعـة واتخذت أقصر الطرق للدير (آنف الذكر) وفجـأة جـرى أمامى أرنب برى صغير (ربما كان من نوع أرانب البحـر المتوسط Lepus Mediterraneus (٣٢) ، وكانت المسافة بينى وبينه بعيدة فلم أطلق عليه النار ، لكن القس والكلاب اندفعوا يثبون وراء الحيوان النبيل ومن الطبيعى أن يكون

الأرنب هو الأسرع فاختفى فى الحال ، ويلعب الأرنب البرى دورا مهما فى زانطة ـ نظرا لندرته الشديدة ، وعاد الصيد البـــائس بعــد مطاردته الفاشـــلة يلهث ويتمتم ويخطب باليونانية ٠

ولما وصلنا للدير اسرعنا الى عرباتنا فقد انقضى منتصف النهار بوقت طــويل ، وسرنا بالعربات طويلا وكان هــذا جميلا ، لكننا كنا نشعر بالبرد وحل المساء قبل ان نصل الى ميرامار وبدت لنا زانطة جميلة الجمال كله وهى تسبح فى ضوء القمر ، وغادرناها فى الصباح بعد أن وصلت تقارير تفيد أن حالة الجو تسمح لنا باستكمال رحلتنا ٠

كان صباح السادس عشر من الشهر طيب المناخ ، وكان البحر يبدو كصفحة زجاجية ، لقد تحركنا بالفعل فى الساعة الرابعة صباحا ومتعنا العيون بمناظر لطيفة وذكرتنى جبال آركاديا Arcadia ومســــينيا Messenia التى يجللها الجليد بجبال الساحل الاسبانى الشمالى (٣٣) ٠ لقد كان مثيرا ذلك التناقض اللونى بين زرقة السماء العميقـــة وبياض القمم الثلجية ، وكلما أوغلنا للجنوب أصبحت الألوان فاتحة وقلت الجبــــال الصــــخرية ، وأصبحنا نرى تلالا متــــدرجة الصفرة كجبال شبه جزيرة أيبيريا القاحلة ٠

وتجاوزنا نافارينو Navarino وبعد ذلك رأينا رأس ماتابان Matapan ذات التماريج ، ثم تتابعت الجزيرتان الصخريتان أريجو Arigo وأريجيتو Arigetto ، وبعد الظهر ظهر لنا فى الأفق جبل كنديا Candia (٣٤) ، وفى المساء مررنا بالطرف الغربى لهذه الجزيرة الجميلة الكبيرة ، وفى ضوء القمر رأينا شـــكلا ضبابيا لجبــــال كريت ٠ وقضينا ساعات بهيجة فوق السفينة نســـتمتع بقمر الجنـــوب المتألق وهو يلقى بضيائه على موج البحر ٠

وفى اليوم التالى كان الجو هادئا وجميلا ايضا فاستمتعنا بهواء البحر المنعش ، وفى الصباح الباكر كنا لازلنا نرى كنديا Canuia ، وكنا نرى جبل ايدا Ida المدهش بعيره من الجبال العاليه فى الجزيرة مغطاة بطبقات كثيفه من الجليد . وعند الظهر احسسنا باقترابنا من افريقيا وسعدنا للمرة الاولى بالدفء القادم . كم هو مبهج ان تستلقى فوق ظهر السفينه مستمتعا بدفء شمس الجنوب ، وان تفكر فى البرودةالتى خلفناها وراءنا فى وسط اوربا منذ أيام قلائل . وتجاوزنا احدى بواخر لويد Lloyd's Steamers ، وفيما عدا ذلك فقد كان كل شيء ساكنا فوق صفحة الماء الممتدة .

واستيقظنا فى الثامن عشر من فبراير لنستمتع بجو رائع وكان أول ما بادر به بعضنا بعضا هذا السؤال : ألم يظهر البر الافريقى بعد ؟ . لا شيء أمامنا سوى الماء على امتداد البصر . وفى الساعة الثامنة صباحا ظهر لنا الساحل الأفريقى شيئا فشيئا وبدت — فى الأفق — بعض مآذن الاسكندرية ، فحياها كل المسافرين معنا بالصياح والتهليل .

تلك هى المرة الثانية التى تتاح لى فيها رؤية قارة أفريقيا ، أما المرةالأولى فقد أعجبت فيها بالسواحل الصخرية لمنطقة أطلس Atlas region ، أما الآن فقد كنت سعيدا فرحا عندما رأيت الساحل المستوى لمصر المقدسة Sacred Egypt (٣٥) .

★★★

الفصل الثانى

الوصول للاسكندرية ـ يوم فى الاسكندرية ـ مسيحيو الشرق الادنى فى مصر ـ ازدحام أحياء الاسكندرية ـ التشبه بين العرب واليهود ـ الحى الأوربى ـ الجنس المختلط ـ أهل الاسكندرية ـ المحطة الجنوبية ـ الرملة ـ ترعة المحمودية ـ جنينة النزهة ـ لا وجود للعاهرات ـ الثرى اليونانى ـ أكوام القمامة ـ عمود بمباى ـ النادبون المستأجرون ـ خط القطار ـ سبخات شمال الدلتا ـ البدو يعبرون الأراضى الزراعية بجمالهم ـ دمنهور ـ كفر الزيات ـ طنطا ـ الالهة بباستيس ـ مولد أحمد البدوى بطنطا يعج بالفجور ـ بنها العسل ـ حديث عن مقتل عباس باشا حلمى بقصره فى بنها ـ الوصول للقاهرة ـ شبرا ـ قلعة قصر النزهة ـ الحى العربى بالقاهرة ـ قصر طوسون ـ مزارع القصب ـ الخولى والكرباج ـ خوف الفلاح من الملابس الرسمية ـ حى القاهرة القديمة ـ مسجد قصر العين ـ زيارة كنيسة قبطية ـ قبط مصر ينتمون للعرق نفسه الذى ينتمى اليه المصريون الآخرون ـ القبطيات محجبات ـ الأزهر كمركز لتفريخ التعصب والرد على ذلك ـ الموسكى ـ الغش اليهودى والعربى ـ الأهرام ـ الأزبكية ـ الصيد فى هليوبولس ـ المحجر ـ رسوم الفنان المصاحب للرحلة ـ تعليقات المترجم •

يبدو الساحل المصرى للرائى كموجات من تلال رملية، ترتفع هنا وهناك على شكل كثبان صفراء شكلتهاالرياح (١) ·

وأول ما يصافح النظر بعض المآذن السامقة ، ثم المنارة ، وبعض الطواحين الهوائية خارج المدينة · وسرعان ما ارتفع أمامنا قصر مصطفى باشا ودائما انبثق من بين الأمواج ، وكان القصر ذا طابع شرقى خيالى ، وهو مخصص لنائب الخديو (٢) ·

والآن ، أصبح وصولنا للاسكندرية حقيقة واقعة ، فاتجه أحد القوارب نحو سفينتنا بعد ان رفع مرشدنا العلم ، ليحدد للقارب هدفه . وقام هؤلاء البحريون — وهم ليسوا عربا خلصا — فالعاملون فى صناعة البحر ، هم جماعات من اجناس مختلطة — قاموا بالتجديف بقوة ونشاط ، حتى وصلوا بالقارب الينا · وكان هؤلاء البحارة ذوى جلود سمراء مصفرة ، ويلبسون ملابس كالتى يلبسها أهل آسيا الصغرى ، وعلى رءوسهم عمائم ، وكانوا يصيحون ويومئون لنا كلما اقتربوا منا · وكان يجلس بينهم رجل داكن البشرة يرتدى لباسا شرقيا جميلا ، وقد لف حول رأسه غترة (لفاع أو وشاح) ، وكان له لحية جعدة سوداء ، أعطت انطباعا واضحا بأنه عربى · وكانت يداه السمراوان مزدانتين بحلقات من فضة (يقصد الخواتم غالبا) (٣) ·

لقد هدأنا من سرعتنا وتسلق المرشد السلم بهدوء ووقار وبعد أن تبادلنا التحية ، جلس فى مكانه عند عجلة التوجيه ، وتم ربط قاربه بالحبال بسفينتنا · وتقدمنا نحو قناة حجرية ضيقة تصل للميناء القديم ·

وجذبت انتباهنا قلعة سعيد باشا الملك (٤) Said Pasha el-Mek ، وكانت تقع عن أيامننا ، بعمارتها التى تدعو للتأمل ، ورأينا عدة مدافع وبعض بساتين نخيل ولما درنا حول حائل الأمواج دخلنا الميناء ، فتجلى لنا منظر مدينة الاسكندرية البهى ·

ولولا المآذن وبعض المباني الضخمة ذات الطراز العربي ، لظن المرء نفسه ازاء بعض موانيء اوروبا الجنوبية ـ فالاسكندرية بلا شك ـ منظر المدن الاوربية اذا نظرنا اليها من الخارج .

لقد تجلى لنا المشهد الفريد ونحن نعبر حاجز الامواج (جدار الحماية المرفأ من شدة الامواج) فانطلقت المدافع تحية لنا ، وحيتنا السفن الحربية التركية : السفينة محمد على ، والسفينة المحروسة Makkarosa ويخت الخديو وقام البحارة باعداد الصوارى ، وكانوا يرتدون زيا له طابع عسكرى على نحو ما ، كما كانوا يضعون الطرابيش فوق رءوسهم . وهبت علينا روح الشرق القديمة الجميلة ممثلة فى العزف السلطانى (السلام السلطانى التركى) الذى يجعلنا نتذكر بشكل ما السلام القيصرى المجرى ، بينما كنا نستمع لموسيقى الخديو (المعزوفة الموسيقية المميزة لخديو مصر) تعزف فى اليخت .

وكان طاقم السفينة النمساوية لويد Lloyd يرتدون ملابس ملونة ذوات طابع احتفالى . وكان الميناء غاصا بالسفن ، واصطف لتحيتنا علية القوم فى الامبراطورية التركية . كانوا بيضا كفوالق الأقمار على بسط حمراء بلون الدم .

واحتشدت على امتداد الماء قوارب ملأى بالعرب من كل الطبقات : فمنهم الغنى ومنهم الفقير لكنهم كانوا يلبسون ملابس فاخرة لها طابع خاص . انها فى حاجة لريشة فنان ، ورأينا كثيرا من أهل المدن ، من الشرق الأدنى(٤) Levantines واليونانيين والايطاليين واليهود ، وكان منهم من يضع على رأسه طربوشا بينما كان آخرون بغير طرابيش .

وقدم الينا أعضاء الجالية النمساوية المجرية(٥) فى لنشات بخارية مزدانة بشكل بهيج ، وعزف فريقهم الموسيقى

موسيقا : « يحفظ الله الامبراطور » (٦) ولوح لنا أهل دلماشيا Dalmatians بزيهم الأخضر والأبيض الذى يرتديه أهل وديان بوشى دى كاترو Bocchi di Cattaro وقد لفوا الشرائط الرابطة لأسلحتهم حول أجسادهم النحيلة • وقد بدا مسيحيو الشرق الأدنى هؤلاء ، فى زيهم متناقضين – بشكل صارخ – مع المسلمين ذوى الملابس الشرقية زاهية الألوان • ولا يمكن مقارنة هذا الخليط الهائل من الأعلام والألوان والأزياء التى كانت تحيط بنا فى هذه القوارب ذوات العدد الا بالمشكال الزجاجى الذى يبعث مالا حصر له من الألوان عند تعرضه للضوء • وبعد أن وصلنا أخيرا الى عوامة ارشاد السفن راح الناس يلوحون – بشكل فضولى – حول سفينتنا •

وسرعان ما قدم البارون شيفر Baron Schaffer القنصل العام ومعه أعضاء القنصلية النمساوية ، وبعد أن تلقينا التحية منهم كان علينا أن نستقبل أصحاب المقام الرفيع من أهل البلاد الذين قدموا الينا فى بوارج الاحتفالات (الاستقبالات)وكان على رأسهم مصطفى باشا Mustapha Pasha وزير الخارجية (٧) ، مبعوثا من سيده فى القاهرة لاستقبالنا ، وتبعهم عدد من الجنرالات ورئيس الميناء ، كما حضر عبد القادر باشا فى لباس جنرال مصرى (رئيس فرقة) Egyptian General of Division • لقد كان الخديو موفقا فى تعيين هذا الرجل المقبول المتحضر المخلط ، فنصفه تركى ونصفه عربى – ليشرف على أمورنا أثناء رحلتنا لمصر • لقد تعلمنا فردا فردا كيف نقدره ونحترمه وكنا نفارقه يوميا – بعد طول تجوال – آسفين لفراقه • وبمجرد أن ينسحب المصريون ذوو المكانة ، يأتى الينا المقيمون النمساويون •

ومن الملاحظ أن عددا كبيرا من النمساويين من مختلف أنحاء المملكة موجودون هنا ، بالاضافة الى عديد من

الدلماشيين Dalmatians لهم دور كبير فى بيـوت المـال الكبرى ، وعلى ايه حال فان غالبيه النمساويين هنا ليسـوا نمساويين بالمولد – انهم من اهل الشرق الادنى Levantines بمختلف جنسياته ، اتوا الى هنا بحثا عن التجارة الامنـه ، وفوق كل ذلك ليقدموا الشكر لنشاط سـفينتنا لويد الذى حقق شهرة رائعة ، رغم أن هذا النشاط لا يقـدر بما فيـه الكفاية فى الوطن (النمسا) ، وقد وضع هؤلاء الشرقيون Levantines أنفسهم تحت حماية بلدنا ، (حصلوا عـلى الحماية النمساوية) (٨) ٠

وبعد أن تناقشنا لبعض الوقت مع أفراد مختلفين منهم وجدنا أن بعضهم كان من مواطنينا (نمساويا) بالميـلاد ، أما الآخـرون فكانوا نمسـاويين بالاسـم فقط – عدنا الى كبائننا بعد أن غادروا السفينة ميرامار ، وغيرنا ملابسـنا الرسمية وارتدينا أخرى مدنية ٠ وسرعان ما نزلنا جميعا على سلالم الميناء حيث كان فى استقبالنا البارون شيفر Schaffer ودلفنـا الى مركبـات كانت فى انتظارنا ، وتزاحم حولنـا الحمالون (مفردهم حمال Hammal) ويسمون أيضـا الشـياليين (مفردهم شـيال Scheyyal) وهم طائفة من أفقر العرب لهـم أذرع عارية وسـيقان بنيـة نحيلة قوية ، وقمصـانهم زرق ويربطـون خواصرهم بأحزمة محـكمة ، وموظفو الجمارك الذين يلبسون اللباس الأوربى ، والبحارة الأتراك وعمال الرصيف ، وكان منظر كثيرين منهم ملفتـا للنظر ٠ لقـد أحاط بنـا الجميع وراحوا يحملقـون فينـا بفضول ٠

لقـد أحسن الخـديو صنعا بوضعه بعض حافلاته فى خدمتنا ٠ لقد كانت الحافلات ، وكذلك الخيول انجليزية ، أما الخدم فكانوا – بدون استثناء – فرنسيين ، وكان زيهم أوربيا تماما ليس فيه من الشرق الا الطربوش ٠ أما خارج

المركبات فكان هناك من يجرون دائما أمامها وهم يصخبون ويصيحون بلا كلل ولا ملل ، وكانوا يلبسون ملابس غريبة بأكمام واسعة بيضاء وفى أيديهم هراوات طويلة ، وكانوا نحال البنية وإقدامهم رشيقة ٠

ولم نعرف فائدة هؤلاء المعينين للجرى امام حافلاتنا الا عندما مررنا بالاحياء العربية الضيقة فى الاسكندرية ، فبدون هؤلاء كان سيتعذر مرورنا الا بصعوبة بين هذا الحشد من البشر والبهائم، بل وكنا سنضطر للتوقف كثيرا ٠

وبمجرد مغادرتنا للمناطق المحيطة بالميناء ظهرت امامنا الحياة الشرقيه بكل ابعادها " الشوارع الضيقة التى تحفها منازل على الطراز العربى ، ملأى بحشود البشر من كل لون : فالحمارون يصيحون ، والسقاءون الذين لا غنى عنهم ٠ والبائعون الذين يبيعون بضائع مختلفة ، والفلاحون ذوو الجلابيب الزرق ، يطوحون ببرانسهم (المفرد برنس) البيضاء الزاهية Pure White burnous ، والنسوة اللائى فى ملابسهن طيات تدل على الثراء ، وقد وضعن فوق رءوسهن زينات ذات طابع قديم وكأنها أوراق نبات ابريقى الأوراق antique pitchers (٩) والمتسولون المصابون بالعمى بعصيهم الطويلة ، وأولاد صغار كالقنافذ وصخب وضجة وشغب لا يمكن أن توجد الا فى الشرق ، وقد دهشنا غاية الدهشة من الأتراك وأبناء آسيا الصغرى بسبب ملابسهم الزاهية ألوانها ٠ لقد كانوا مختلفين تماما حتى فى طريقة التعبير عن العرب ، وكانت جلودهم أرق وأقل دكنة ٠ فالعربى الحقيقى داكن اللون وله ملامح جميلة ونبيلة وشكله رقيق لكنه مفعم رجولة ٠ والعربى، وان كان أرقى من اليهودى Israelite بكل المقاييس ، الا أنه يشبهه بشكل واضح لا تخطئه العين (١٠) ٠ والفلاحون الذين يزرعون التلال ليسوا عربا خلصا ، انهم أقرب شبها بالمصريين القدماء ،

وأظن أنهم السكان الأصليون لمصر وسأتناول هذا الموضـوع بتفصيل أكثر فى موضع آخر (١١) ٠

وبعد أن عبرنا هذه الشوارع الشرقية وصلنا الى الجانب الأوربى من المدينة (الاسكندرية) ، حيث الشوارع العريضة والمنازل الجميلة على الطراز الأوربى والمحلات الواسعة وبدا أن ساحة محمد على هى مركز الحى وأكثر المواضـع بهاء ٠ ولا أجد ضرورة لوصف ملامح الأوربيين من سكان الموانىء (موانىء البحر المتوسط) ٠

وللاسكندرية هذه الشخصية تماما فرغم انتظام شوارعها وجمالها ، الا أن شيئا ما عالقا بها يعد غريبا بالنسبة لنا ٠ فالقذارة الشرقية والفوضى (الاهمال) التى لفتت النظـر للمدن العربية لا تنفى انها ــ أن هذه المدن ــ تحذو حـذو العمارة الغربية وتحاكيها محاكاة كاملة ، فأنت تحس فى كل خطوة تخطوها بوجود الغريب الذى يسعى لوضع أثره على العالم الأجنبى ٠ وتغطى الرمال القـادمة من الصحراء المـدن الاوربيـة (يقصـد المـدن الشرقيـة ذات الطـابع الأوربى) (١٢) وتجعل وجوه الأجانب الطامعين فى الكسب ــ شاحبة ٠

لقد وصلنا لساحة محمد عـلى بعـد أن مررنا ببعض الشوارع الرئيسية ، وفى وسط الساحة (الميدان) يقبـع تمثال المقاتل العظيم محمد على على صهوة جواد ، ومحمـد على هو الابن المغامر والناجح لأحـد الحراس المقدونيين من قولة kawala ولم يكن اهتمام محمد على البالغ بمدينة الاسكندرية عبثا أو بلا هدف ، فقد يقارنه العالم بالاسكندر الأكبر . ان كان ــ أى محمد على ــ قد نجح فى تطويرها فى مختلف المجالات ٠

ويجد المسافر نفسه فى الاسكندرية فوق أرض تاريخية لكن هذه المدينة لن تستعيد مرة أخرى عظمة وبهاء ، كالعظمة والبهاء التى كانت عليهما أيام مكتبة الاسكندرية العظيمة ، عندما كانت مركزا للفن والأدب ومختلف العلوم ٠

ان الشوارع الأوربية مفعمة بالحياة والنشاط (يقصد الشوارع ذات الطابع الاوربى بالاسكندرية) (١٢) فالناس لهم منظر الجنس المختلط ــ بشكل واضح يفوق الوصف ــ بحيث يمكن وصفهم بأنهم من الشرق الأدنى(١٤) Levantine ان ملامحهم خليط من ملامح الايطاليين واليونانيين والارمن والاتراك ــ وكلهم يلبسون اللباس الأوربى ، الا انهم ــ بشكل عام ــ يضعون فوق رءوسهم الطرابيش ٠ وبالاضافة لذلك فقد رأيت أزياء دلماشية Dalmatian وألبانية بالاضافة للأزياء التركية وأزياء آسيا الصغرى Turkish, and tho e of Asia Minor

والرهبان اليونانيون هنا كثيرون كما رأيت بعض الفرنسسكان ، ويظهر الحماررون (بتشديد الميم) والحمالون والسقاءون فى الشوارع الأوربية (بالاسكندرية) وان كان العدد الأكبر منهم يوجد فى شوارع الحى العربى ٠ ويقف البربر Moors والنوبيون أمام بيوت البنكيين الأثرياء لمجرد التباهي والمظهرية دون أن يقوموا بعمل محدد ٠

لقد عدنا أدراجنا الى الحى العربى بعد أن أصابنا الازعاج من الشوارع المستقيمة ٠ لقد وصلنا الى الحياة الشرقية الصميمة ، بدخولنا بعض الحوارى الضيقة المشيدة على النسق الشرقى حيث للمنازل مشربيات مخصصة للنساء ، وهذه المشربيات عبارة عن نوافذ مغطاة بخشب شعرى مقصب (١٥) ٠ لقد أصبحت حافلتنا تسير أبطأ فأبطأ حتى اضطررنا أخيرا لتركها وسرنا على أقدامنا فى السوق ٠

ولا يمكن للاسكندرية أن تزعم انها على شاكلة مدينة عربية ، فحتى سوقها الصغيرة التافهة بكل ما فيها من حياة وحركة تعطى انطباعا مفرطا للأوربى الذى وصل اليها لتوه قادما من الغرب دون أن يكون له المام بأحوال الشرق ٠

ان المرء يجد فى الاسكندرية حشودا من المشاهدين التافهين والبائعين والمشترين والأطفال المتشردين والكلاب والحمارين الطائشين ، والازياء الغريبة ومختلف انواع الأجناس ، ومع هذا فان هذا التباين الشديد الموجود بالاسكندرية يجد المرء أكثر منه بكثير فى القاهرة ٠ لذا فاننى سأبذل قصارى جهدى لوصف الحى العربى والسوق الذائعة الصيت لعاصمة الخلفاء القديمة ٠ لكن الالمام بمعلومات كاملة عن الحياة الشرقية يستلزم دراسة خاصة ٠

لقد اتخذنا طريقنا ببطء وصعوبة فى السوق ، وعند الطرف الاخر للسوق كانت الحافلة فى انتظارنا ، فاوصلتنا الى المحطة الجنوبية ٠ لقد كانت الترتيبات والحافلات تذكرنا بانجلترا فى كل شىء فيما عدا بعض الاهمال ٠

لقد سار بنا القطار على طول كثبان رملية كانت تفصل البحيرات عن البحر ــ الرملة Ramleh وهى المنتجع الصيفى لأثرياء مصر وموضع سياحتهم ، ويرى المرء هنا وهناك خاصة بالقرب من الاسكندرية كثبانا من رمال الصحراء الصفراء ، وتناثرت على طول هذه الكثبان خيام الغجر والبدو ، وجمال واهنة وحمير ناهقة ، وأكواخ أقامها العرب ، وقبور كثيبة ، الا أن معظم هذه الكثبان قد تحول الى حدائق وأقيمت عليها الفيلات الباسمة ٠

لقد أثمرت أشجار الليمون والبرتقال الى جانب النخيل السامقات فبدا المكان كله يبدو كمتنزه ٠ وعند الوصول

للرملة Ramleh لـم ننتظـر أكثر من عشر دقائق حتى وصل القطار التالى ليعود بنا للاسكندرية • لقد اظهرت هذه الرحلة القصيرة للغريب كيف ان الجهـد البشرى يمكـن ان يحيل أكثر الاراضى قفرا الى فردوس • واثنـاء عودتنـا للاسكندرية كان القطار يسير بنا على طول ترعة المحمـودية Mahmudiyé canal ، الى الحديقة العامة الكبيرة المسماة جنينة النزهة Ginènet-en-Nasha • وكان المنظر عـلى طول ترعة المحمودية مسليا •

لقد كان الطريق بهيجا فقـد رأينـا علية القـوم فى الاسكندرية فى حافلاتهم التى تجرها الخيول (حناطيرهم) متجهين الى الحدائق الغناء حيث كانت تهب نسـائم المسـاء المنعشة ، كما رأينا الرجال والنساء من أكثر الطبقات فقرا، وهم يتوضأون بمياه ترعة المحمودية ويؤدون صلواتهم عـلى ضفتى الترعة وقد ولوا وجوههم صوب مكة (المكرمة) •

ويرى المرء بين البعض ممن يلبسـون ثيابا راقيـة ، شيئا من سقم الذوق فى طريقة اللباس ، ومع هذا فالوجوه جميلة جمالا لا يمكن انكاره • ولا توجد اشارة ، بل أدنى اشارة لوجود طبقة المومسات أو نساء المتعة التى نعرفها فى فينا أو بيز Pesth ، وغالب المومسات فى مصر ـ كما قيل لى ـ أتين من النمسا • وحديقة « جنينة النزهة » ذات بهـاء وفخامة ، ولها الطابع المدارى لحدائق مصر فروائح البهـار تملأ الهواء ، والزهور المتفتحة اليانعة تسر عيون الأجانب، وراحت الفرق العسكرية تعزف أجمل الألحان ، وراح عديد من الأوربيين يسيرون فى الممرات الظليلة •

وقد زرنا أجمل بيوت الحى ـ انها فيلا الثرى اليونانى أنتونيـاديز Antoniadis • لقـد كانت للفيـلا حديقـة يحيط بها سور متين ، ووحد سخاء المناخ الأفريقى بين الفن

والطبيعة فى ثوب واحد قشيب ، وكانت الفيلا نفسها جميلة منسقة ، وبذل بانيها قصارى جهده ليكون جوها من الداخل باردا ، وقد سمح مالكها لنا تفضلا منه بزيارتها ٠

وعدنا مرة أخرى للاسكندرية عبر طريق محفوف بالشجر على الترعة ، ثم انحرفنا الى أرض بهـا عمود بمباى Pompey الشهير وهو يقع خارج الاسكندرية ٠

وقد جذب انتباهى الطريق الذى سلكناه ، فقد وجدت فيه ما يذكرنى بمناظر فى وطنى ٠ والأحياء المجاورة تمثل المدن الشرقية وكذلك تلك الموجودة فى شرق أوربا ، لها الطابع نفسه ٠ فالمنازل والأحياء تصبح أصفر ، ويبدو الاهمال وتظهر اكوام القمامة وينقلب كيان المبانى ٠ وتبدو المقابر المنعزلة ٠

وهنا يبدو طابع المكان اكثر تحديدا ووضوحا ، حيث المقابر الخربة وهذه المبانى الصغيرة الدائرية ذوات القباب وأشجار النخيل المتناثرة وقد قل عـددها ، والجمال المحملة فى حالة استرخاء ، والـكلاب التى تكاد تكـون متوحشـة والجواميس والحمير ، وقد انتشرت الأتربة الصفراء فى كل مكان ٠

وفى وسط المساكن الكائنة فى طرف المدينة يوجـد تل دائرى من صنع الانسان ، لا بفعل الطبيعة ، وفوق هذا التل ينتصب عمود بمباى الأثرى ، وهو قطعة حجرية واحدة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وستين قدما ، وفى منتهاه (طرفه العلوى) صخر نارى أسوانى Syenite فوقه تاج كورنثى الطراز Corinthian ، وكان هذا التاج فى الأزمنة القديمة يحمـل تمثال دقلديانوس Diocletian (١٧) ٠

وأتت اللحظة الأثيرة فصعدنا هذا التل الصـخرى (الى جوار العمود) ومتعنا النظر ، فقد كانت الاسكندرية تمتـد

أمامنا وقد لبست غلالة من ضوء ذهبى ، ويمتـــد البحر الى شمالها وتمتد الكثبان الرملية وبحيرة مريوط الى جنوبهـا الشرقى ٠

كانت الشمس تغرب وظهر قرصها واهنــا بين الهــواء المعبأ بالاتربة والسخونه ، فبدت خجلى واهنة ، كالشمس فى أيام بلادنا الضبابية ٠ وكانت السماء ــ من ناحية الغرب ــ مزدانة بألوان خصبة وثرية ، برتقالى واحمر وازرق وكل لون منها واضح وغير متداخل مع الالوان الأخرى ، وكلهـا جميعا ــ اى هذه الالوان ــ تسبح فى نور ذهبى ، أما من جهة الشرق فقد كانت الســماء قد تدثرت بظــلال زرقاء ، وظهرت مقدمات المساء ، وكان يمكن رؤية نجوم متالقة هنا وهنــاك فالشرق وحده ــ ومصر خاصــة ــ مشهور بأضوائه وظلاله التى تترك فى النفس فعلا كفعل السحر ٠

وبينما كنا فى قمة السعادة فوق التــل لروعة المشــهد أمامنا سمعنا صوت ضجة ورأينا زحاما عند قاعدة التــل ٠ ففى البداية أتت قطعان من الماعز بآذانها المائلة ، ثم صفوف من الجمال ٠ لقد كانت ــ الماعز والجمال ــ فى الطريق الى زرائبها وبصحبتها رعاتها يصيحون فيها ٠ وبعد ذلك رأينا جنازة حيث الناس يسيرون خلف تابوت خشبى بدون غطاء سوى قطعة قماش مطروحة عليه ، وفى مقدمة التابوت عمامة منحوتة من الخشب تنبيء أن الرجل فى طريقه لمثواه الأخير ، وقد أحاط بالتــابوت بعض النــدابين المســتأجرين (١٨) hired mourners ، راحوا يعصرون أيديهم اظهــارا للألم كما راحوا يولولون بصوت عال ٠ ووراء التابوت قوم يتلون الدعوات ويمشون ببطء ٠ لقد كان منظرا غير عادى ٠

وقمنا بجولة ثم عدنا للاسكندرية من خلال باب محرم بك الذى كان يمثل تحصينا للمدينــة فيما مضى ، أما الآن فليست له أية قيمة تحصينية ٠

وفى ساعات المساء تزداد الحركة فى الشوارع عنها فى ساعات النهار ، وتزداد الضوضاء ويعلو الصياح ولا يهدأ الصراخ . ان هذا يتناقض مع طبيعة الليــل الذى يجب ان يتسم بالســكون ففى الليل تبقى المحلات مضاءة والمقــاهى مفتوحة . وأســماء المحلات والمقــاهى فى الحى الاوربى بالاسكندرية مكتوبة اما باليونانية أو الفرنسية أو الايطالية .

لقــد وصــلنا لسفينتنا ميرامار بينما قد أرخى الليــل ســدوله وأقبــل البارون ساورما Baron Saurma القنصل الألمانى العام لتناول العشاء ، وقد لزمنا هذا الرجل وانضم لمجموعتنا وقد كان مفيدا لنا فى كثير من الحــالات خاصــة فيما يتعلق بأمور الصيد .

لقد غادرنا ميرامار فى بكور اليوم التاسع عشر وودعناها فلن نعود اليهــا بعــد وقت قصــير . لقــد أوصلتنا بارجة احتفاليــة مصرية خاصــة بنــائب الســلطان (الخــديو) Viceroy الى البر ، وكانت هـــذه البارجة مزينــة ومعدة على نمط شرقى ، فكل شيء فيهــا كان أحمــر اللـــون ، فملابس البحارة لم تكن تقل حمرة عن أغطية المقاعد ، وكانت الأركان مغطاة بجوخ أحمر ، كما كانت المظلات التى نستظل بها حمراء . والبحارة الشرقيون يجــدفون بهدوء ــ عـــلى النقيض من البحارة الأوربيين ، وان كنا لا ننكر أن التنسيق فى التجديف مصحوبا بأغنية هادئة غريبة قد ترك فينا تأثيرا يدعو للسرور .

لقد انطلقنــا من الميـنــاء للمحطة حيث كان هناك زحام شــديد من النمســاويين ومن المنــاطق التابعة لنــا وعزفت الموسيقا « يحفظ الله الامبراطور » ولــوح أبنــاء دلماشــيا بقبعاتهم تحيــة لنا ، بينما كانــوا يرتدون زيهم الــوطنى المتسم بالثراء والجمال . وفى غضون دقائق قليلة كنا قد غادرنا المحطة . لقــد وضـــع نائب الســلطان (الخــديو)

قطاره الخـاص فى خدمتنـا بما فى ذلك العربات الواسعة الخاصة به ، وكان فى القطار حافلة (عربة) مكشوفة فى الوسط • وثمة ممرات جيدة تمكن المرء من الانتقـال من اقصى القطار الى أدناه •

لقد كان فى القطار بالاضـافة لمجموعتنا (التى قدمت من النمسا) البارون شيفر Schaffer واعضاء المنصلية النمساوية والبارون سـاورما Saurma ، وعبد القادر باشا مسئول الشئون الخارجية المصرية ، ومصطفى باشا وبعض المصريين ومسئولو ادارة السـكك الحديدية وعـلى رأسـهم م • زمرمان Zimmerman وهو رجل فرنسى متحضر ، ويحظى بقبول كبير وقد شملنا برقة غير محدودة •

لقد كان القطار سريعا ، لذا فقد كنا ـ بشق الأنفس ـ نستطيع أن نلقى نظرة على المناطق الجديرة بالرؤية ، بسبب سرعة القطار • لقد كان طريق القطار فى البداية على طول حافة تفصل بين بحيرات مريوط السبخة عن أيامننا ، ومياه أبى قير عن شمائلنا ، فالمساحات العريضة لهـذه المسطحات المائية كانت مغطاة بطيور الماء من مختلف الأنواع ، وعـلى الشـواطىء الرملية كانت طيـور البلشـون (بفتح الباء واللام) السوداء (أو مالك الحزين) برقابها الممتدة •

وبعد برهة تركنا خلفنا مياه شمال الدلتا وسبخاتها(١٩) لننعم النظر بالأراضى الخصبة كثيفة الزروع، ففى كل مكان ترى الحرث وحقول القمح الواسعة وغابات من أشجار القطن، وقنوات عميقة وجسورا عالية وتناثرت النخيل هنا وهناك ، وكذلك البساتين الكثيفة dusty ، والقرى ذات المبانى الطينية وقد سمقت فى سمائها المآذن • هـذه هى السـمات العامة لمصر الدنيا (الدلتا) •

ويرى المرء حياة نشطة على الجسور ــ التى تستخدم أيضا كطرق ــ وكذلك فى الحقول فثمة فلاحون يحرثون ، وآخرون ــ نصف عراة ــ مشغولون عند السواقى والنسوة بجلابيبهن الزرق يسرن الى جوار قوافل الجمال الفخورة (المعتزة بنفسها) وقد أمسكن بايديهن أطفالهن العراة • وتعبر الأسر البدوية الأراضى المزروعة وهم فى طريقهم من صحراء لأخرى سواء سائرين على أقدامهم أم يمتطون خيولا ، أما البدويات فتركبن جمالا • ان هؤلاء البدو ذوو أحجام ضئيلة ، ومع هذا فهم معتزون بأنفسهم ونزاعون للاستقلال •

لقد راينا العرب الخلص والبرانس (العباءات) البيضاء والخيول الجميله والبنادق الطويله ، والسيوف المعقوفة ، والعمائم ، وطواقى الفلاحين البسيطة والماعز طويلة الوبر والكلاب الشبيهة بالذئاب وحمير الفلاحين السوداء المصعرة التى اعتراها الهزال ، جنبا الى جنب مع البغال والحمير البيض والسود التى تبدو عليها آثار النعمة والعلف الجيد والتى اعدها أصحابها الأثرياء للركوب ، ومواكب عربات الأثرياء والرجال ذوى العباءات المزركشة على صهوات الخيل والنساء يركبن الجمال فى هوادج (جمع هودج) ليدرأ عنهن نظرات المتطفلين ، وجماعات طيور النورس (زمج الماء) تتبع الفلاحين وهم يحرثون ، وطائر أبو طيط الرشيق • وبين أشجار الحقول على شاطىء النهر تهدل حمائم النخيل الحمراء (؟) وزمج الماء (٢٠) ذو المنقار الطويل ينقض صائدا السمك ــ انه أكثر الطيور المصرية أصالة (انه طائر مصرى أصيل) • ويرى المرء من القطار الذئاب وهى تعدو فى الحقول ، والحدءات تحلق بأعداد كبيرة ، وكذلك الصقور ، وتحوم النسور فوق القرى •

انه عرض متباين ومفعم بالحياة ومشوق للنشاط البشرى والحياة الحيوانية ، وقد غلفها ضباب أزرق ملىء بالأتربة فى حر الظهيرة ، وكأن المسافر ينظر للحياة فى مصر القديمة تبعث من جديد •

لقد خلفنا وراءنا مدينة دمنهور وهى مدينة عربيه صغيرة ، وعبرنا السهل وما زلنا نراقب ونتامل ، وعبر القطار جسرا حديديا فوق النيل ، وللمرة الاولى نحيى هذا المجرى المائى العظيم الذى يعد اقدم الأنهار التاريخية ، وعلى الضفة الشرقية (اليمنى) مررنا بمحطة كفر الزيات وهى مدينة صغيرة قريبة من دمنهور ٠

وبعد مسافة غير بعيدة وصلنا لمدينة طنطا الشهيرة والقديمة ٠ وبدت المدينه على البعد كدومة قمامه تحيطها حدائق مزهرة ونخيل وأشجار جميز كثيفة ، اما عندما أصبحنا اكثر قربا فقد بدت عاجة بكل أوجه الحياة الشرقية حركة وصخبا ، وقد شيدت بيوتها من طين ، ويقال ان البيوت فيها يتساقط بعضها فوق بعضها الاخر فى فوضى مرعبة الا أنها جميعا قد شيدت على النمط العربى فى منظر يستحق التصوير ٠

وطنطا مشهورة بسوقها التى تعقد بشكل منتظم ، وحتى فى أيام هيرودوت فان هذه الأسواق كانت تعقد فى مصر السفلى وغالبا ما كان ذلك فى شرق الدلتا ٠ وتبعث هذه الأسواق الحركة والنشاط فى القطر كله وغالبا ما كان يصاحبها انغماس فى اللهو على نحو مسف ، وفى الأيام الماضية كانت هذه المهرجانات تعقد على شرف الالهة بباستيس Bupastis ، أما الآن فانها تعقد على شرف سيد طنطا (السيد أحمد البدوى) الذى توفى هنا سنة ١٢٠٠ م واعتبره الناس قديسا (وليا)، وسواء أكانت هذه المهرجانات بمناسبة عقد أسواق أم على شرف الالهة بباستيس أم احتفالا بمولد سيد طنطا أحمد البدوى ، فانها جميعا قد احتفظت بروح التسيب والفجور المصاحب لها (٢١) ٠

لقد توقف القطار لدقائق معدودة فى طنطا ، وكانت المناظر التى رأيناها بعد ذلك لا تختلف عما رأيناه آنفا ، وعند بنها العسل عبرنا فرع دمياط ٠

وثمة قلعة كبيرة تشمخ بين البساتين هنا ، وقد حققت شهرة بسبب الحدث المروع الذى جرى بها • ففى سنة ١٨٥٤ قتل هنا عباس باشا بن طوسون الذى تولى الحكم ومحمد على لازال على قيد الحياة ، على يد مملوكين • ويقال انه لم يكن يستحق هذه النهاية المأسوية (٢٢) •

لقد أصبحت مناظر الدلتا بالنسبة لنا رتيبة ، ولذا فقد كنا سعداء باقتراب لحظة مغادرتنا لها •

فهنا وهناك كنا نرى عبر المروج الأفق الأصفر للصحراء الليبية (الشرقية) فى اتجاه الجنوب الغربى ، والى اليمين أمامنا رأينا فى وهج النهار أهرام الجيزة رغم أن الجو كان برتقاليا ومغبرا • انها لحظة مهيبة ، فتهجم الأفكار من تلقاء نفسها فتغمر عقل الرحالة الذى يرى بأم عينيه للمرة الأولى هذه الدلالات الحضارية ذات العمر السحيق ، ويجد نفسه فى أرض الفراعنة التى تعد الركن الحجرى الصامد لحضارة العالم •

والى الجنوب الشرقى ترتفع جبال المقطم كمائدة صحراوية ، وعند سفحها جدران القلعة ومآذن مسجد محمد على ، وبين كل هذا تمتد منازل القاهرة كالأمواج المتلاطمة بين سديم حار • انها المدينة الرئيسية فى أفريقيا • ما هى الا لحظات وسنصل للمدينة العريقة ، مدينة الخليفة ، لقد حف القطار من الجانبين بحدائق غناء • غابات من النخيل والجميز حول المنازل المنعزلة ، وعلى امتداد البصر ظهرت الخضرة الداكنة لمزارع حى شبرا Schubra Avenue ، وفى غضون دقائق كان القطار فى المحطة •

كان نائب السلطان (الخديو) Viceroy يحيط به رجال دولته واقفين على درجات السلم ، واستقبلونا بترحاب شديد •

واستقبل أعضاء الجالية النمساوية المجرية مواطنيهم بترحاب حماسي باهر ، وذهبنا للحافلات التى كانت فى انتظارنا • لقد كانت مزودة بأثاث ومعدات اوربية فى الغاية من الجمال • وعزفت الموسيقا السلام الوطنى على شرفنا • لقد عرفنا أن الحياة فى القاهرة ساحرة فاتنة من مجرد النظرة الاولى • لقد انطلقنا فى شارع قصير الى جسر يعبر قناة (ترعة) فى شارع شبرا ذى الخضرة والظلال • وتتابعت الصور ، صورة فى اثر صورة وكأننا فى حلم • زحام بشرى ، وجمال محملة ، وحمير صغيرة وشرقيون فى ملابس زاهية ملونة ، ومحلات فتحت جوانب من آبوابها ومقاه يجلس زبائنها أمامها ، وأطفال يتشقلبون فوق التراب وهم يصيحون ويتدافعون بشدة ، ولم يتنح واحد منهم عن الطريق ، وفلاحات أصابهن الرعب يحملن جرار الماء فوق رءوسهن ، هربن صارخات بمجرد اقتراب الحافلات بسرعة • وقام الرجال المرافقون بتوسيع الطريق لحافلاتنا بازاحة من فى الطريق ، مستخدمين عصيهم • وعن يسار الطريق وكذلك عن اليمين لاحظت مساكن جميلة تحيط بها حدائق فاتنة • وفى غضون دقائق قليلة درنا من خلال بوابة معرشة حيث كانت توجد قلعة قصر النزهة Castle of Kasr-en-Nusha بين فيض من الأشجار والزروع الكثيفة ، وحيتنا فرقة مشاة بالنفخ فى الأبواق •

لقد كان قصر النزهة هو محل اقامتنا الذى تفضل بنا عليه بلطف كبير منه نائب السلطان (الخديو) عبارة عن قلعة تتكون من مبنيين مربعين ، يربطهما ممر ذو نوافذ ضخمة زجاجية فوق بوابة المدخل • ان كل شيء داخل المبنى وخارجه أوربى ولا اختلاف الا فى الزينات والمعلقات البهيجة والحمامات الشرقية وكثير من التفاصيل الصغيرة التى لا تحصى التى تذكر المرء فى كل ركن أنه فى الشرق •

لقد اتخذنا لنا مجلسا بسرعة ورحنا نمتح عبق الحياة الشرقية ببهجة • لقد كان ترتيب المكان والشرفات الجذابة والعطور المنبعثة من زهور الحديقة والهواء المنعش يذكرنا بالحكايات الخيالية الشرقية • وبعد ان تناولنا افطارا سريعا ذهب بعضنا للصيد مع البارون ساوزما •

لقد عبرنا القناة (الترعة) مرة أخرى وجلنا خلال الحي الاوربي بشوارعه العريضة ومنازله الجميله وبساتين انريائه • ورأينا على البعد مدخل الحي العربي وكان مسليا لنا ان نرى الفوضى ضاربة أطنابها في الشوارع ، حيث يرى المرء كل شيء : الحافلات الأوربية والحناطير البائسة وحمير الركوب وحمير التحميل والبغال والجمال ، والاغنياء والفقراء والمتسولون والشرقيون المسلمون الأصلاء وأنصاف الأوربيين من أهل الشرق الأدنى ، وبالاضافة لكل هذا يرى المرء جمعا من الغربيين كسياح وما الى ذلك • ولما عبرنا قصر النيل عبرنا جسرا وجدنا الممرات الظليلة بين الحدائق المواجهة للمدينة (القاهرة) ، وبالقرب من قلعة (قصر) طوسون باشا المحاط بالقنوات المائية والمروج توجد مزارع ممتدة لقصب السكر ، واقترحنا أن نقوم بالصيد في احدى هذه المزارع وكان الأمير تاكسيس Taxis وأخو البارون ساورما في انتظارنا في المكان ، وكانت البنادق معدة والكلاب على أهبة الاستعداد •

وظللنا لفترة طويلة ولم تشم الكلاب الألمانية (من نوع داشهند Dashshunds) ما يدل على وجود ما يمكن صيده ثم سمعنا عواء عاليا بالقرب من حافة الحقل ، ولسوء الحظ فان الذئب خرج من مخبئه الى بقعة لا يمكن أن تطوله فيها البنادق لذا ، فقد عبرنا القناة (الترعة) العريضة الى مزرعة أخرى • وأطلقنا الكلاب مرة أخرى لكننا اضطررنا للتخلى عن رياضتنا بينما كانت الكلاب قد راحت تتشمم ريح

الطرائد بالفعل ، ذلك أن الفلاحين كانوا قد بدءوا فى قطع القصب فى أحد جانبى الحقل ٠

لقد كان عدد كبير من الفلاحين البؤساء يلبسون ألبسة متواضعة ـ رغم أن لبعضهم منظرا يوحى بالقوة ـ يعملون تحت اشراف خولى overscor يلبس عباءة طويلة ويحمل فى يده كرباجا من جلد وحيد القرن ، وقد تقدم منى هذا الخولى بزهو وتحدث طويلا وهو يومىء كثيرا أثناء الكلام ، وقد فهمت بعد لأى أنه يرغب منا مغادرة الأرض ٠ ولما رأيت أنه يرفع صوته أكثر من اللازم ويحرك يده بعنف استدعيت عثمان الخادم الأسود للبارون ساورما ، ولما رأى هذا الشرقى الفاضل (الخولى) البزة المميزة لخادم القنصل انخفض صوته وتراجعت نبراته وانسحب سريعا خوفا من خطر يحيق به ، واختبأ داخل أعواد القصب الكثيفة (٢٣) ٠

وعدنا جميعا الى الحافلات ٠ لقد كانت أول محاولاتنا للصيد غير ناجحة ، وان كنا قد أطلقنا النار على بعض الطرائد الصغيرة ٠

وقد صحبنا البارون ساورما للقاهرة القديمة (٢٤) وهى أكثر مناطق القاهرة قدما وتقع ناحية الجنوب ، وكان علينا أن نعبر الجسر (الكوبرى) مرة أخرى ثم ندور بالقرب من النيل الى اليمين بالقرب من قصر نائب الحاكم Vice-Vegal لقد أدى بنا الطريق بسرعة الى أكثر المتاهات اثارة ، حيث الخرائب والبقايا والقاذورات والأطلال من مختلف الأنواع ٠

ويقطن أفقر السكان فى مساكن بائسة على وشك الانهيار ٠ لقد انتهى الطريق الذى يمكن أن تقطعه الحافلة بين الأحجار وأكوام الرمال ، وكان علينا أن نغادر الحافلات بين نخلتين وأن نتابع مسيرنا على الأقدام ٠

ومن فوق كومة عالية كان أحد جوانبها يمثل بقايا جدار قديم لآخر منازل المدينة متعنا العين بالمنظر الرائع

وفى هذا الموضع تمرح الضباع وتعـوى أبناء آوى وتنبح الكلاب المتوحشه ليلا • لقد طوقت السحب قرص الشـمس بتدرج لونى متباين ، بينما هى تغرب فى الصحراء الليبيه (الغربية) البرتقالى لونها ، جعلت كل شىء يسبح فى بحـر من ذهب • والاهرامات ومآذن المدينة وفتحـات حصـونها والقلعة ومنحدرات جبل المقطم الحادة • لقد كانت صـورة فى الغاية من الثراء تشكيلا ولونا لا شىء يمكن أن يتصوره المـرء أكثر جمـالا من ذلك • انه منظـر غاص بكل ما فى الطبيعة وما فى العمارة من بهاء •

ويقع مسجد قصر العين Kasr el-Ain Mosque المخـرب والمهجـور بين أكوام من الحطام ، وجـدرانه القديمـة قد سكنتها أنواع من طيور الكروان ، وهـو طائـر يفضـل المستنقعات وينشط فى الظلام ، فاذا هبط الليل غادر أوكاره يصيح صيحات حادة غير منقطعة ويتخذ سبيله للنيل ويسمع المصريون عزفه طوال الليل فى سائر أنحاء مصر •

وقد تمركزنا عـلى طول المسـجد ورحنا نراقب هـذا الطائر الغريب ، فكلما أعتم الليل كانت مجموعات منه تغادر أوكارها • انها طيور سريعة وحذرة للغاية حتى ان هويوز Hoyos كان هو الوحيد فينا الذى نجح فى اسقاط واحد منهـا • ورحنـا نتعثر فوق الخرائب والأطلال مسترشدين بنباح الكلاب التى رحنا نحثها ، وبحملقات العرب البارعين فى قص الأثر والذين خرجوا من جحورهم (بيوتهم) حتى وصلنا الى حافلاتنا •

لقد كان طريق العودة شاقا وبطيئا فلم نستطع معرفة وجهتنا فى الظلام خلال خرائب القاهرة القديمة وأطلالهـا المعقدة ، وقد وصلنا بعد ذلك لبسـاتين وحـدائق وأخـيرا وصلنا للمدينة (القاهرة) الحديثة بشـوارعها المزدحمـة والمضاءة اضاءة جيدة •

ولما وصلنا مستقرنا وتناولنا عشاءنا أتى مواطنونا وهم يحملون المشاعل الى حدائق قصر النزهة • وكان عزفهم « يحفظ الله الامبراطور » وصيحاتهم وترحيبهم يدوى — بشكل غريب — خلال ليل أفريقيا الهادىء الرائع • وعند انتهاء هذا الترحيب الحار ذهب كل منا لينال قسطه من النوم والراحة •

وفى بكور اليوم العشرين اتخذنا سبيلنا الى اقدم الاحياء العربية لنحضر قداسا فى كنيسة قبطية • لقد وصلنا لابواب مبنى قديم بعد ان مررنا بممر ضيق لا يمكن دخوله الا سيرا على الاقدام ، والمساكن المجاورة لهذه الكنيسة يسكنها مسيحيون وبخاصة القبط ، وبمرور الوقت كثر عدد المسيحيين القاطنين حول الكنيسة التى يسمونها « بيت المسيحيين House of Christians • وكان فى انتظارنا بعض الاكليروس (رجال الدين) بملامحهم الداكنة ولحاهم الطويلة وسحنهم التى تشبه بشكل واضح سحن اليهود وعباءاتهم السوداء ذات الثنيات ، وهم مختلفون جدا عن كل أكليروس الملل الأخرى ، وكان أسقفهم فى مقدمتهم •

والعقيدة القبطية — كأى شىء آخر فى الشرق — بقيت دون تغيير فى الأعراف والعادات والطقوس والملابس الكهنوتية • فهم يرتلون القداس كما كان يرتله المسيحيون الأوائل الذين أدخلوا المسيحية من آسيا الى أفريقيا ويؤدون الطقوس ويبشرون بالطريقة نفسها التى كان يتبعها أسلافهم • لكن طقوسهم وشعائرهم لا تتفق أبدا مع طقوسنا وشعائرنا فى الغرب وانما احتفظوا بها (الطقوس والشعائر) كما كانت • ونحن نرى فى القبط المصريين صورة عقائدية للمسيحية فى أيامها الأولى • ان هؤلاء المصريين القبط هم ممثلو عقيدتنا فى شمال شرق أفريقيا وان كان أثرهم قد امتد بعيدا داخل القارة المظلمة •

ومن الناحية العرقية فان قبط مصر ينتمون لعرق نفسه الذى ينتمى اليه المصريون الآخرون (٢٥) ورغم انتصار الاسلام وكثرة اتباعه ورغم قلة عدد المسيحيين الاقباط بالمقارنة بالمسلمين ، الا أنهم كانوا قادرين على الاحتفاظ بعقيدتهم وتراثهم حتى اليوم ٠

وقد رأينا بين الكهنة والقسس وغلمان الخوروس(٢٦) (بضم الخاء والراء) (★) الوجوه البنيه الداكنه لوجوه الافارقه الخلص ٠ لقد كان هناك مصلون كثيرون خاصه من القبط ــ رغم وجود مسيحيين آخرين يتبعون طقوسا كنيسه أخرى ــ فى الكنيسة البسيطة الفقيرة ٠ وترتدى نسوة الاقباط الملابس الشرقية القديمة مثل المسيحيات فى بلاد الشرق ، وقد رأينا نسوة كثيرات بعد ذلك يرتدين الملابس ذاتها عند زيارتنا للأماكن المسيحية المقدسة، والنسوة القبطيات محجبات بحجاب أبيض مثلهن فى ذلك مثل المسلمات ٠ وبعد تلاوة القداس استأذنا فى الانصراف من ممثلى هذه الهيئة الدينية التى تعد أكثر الهيئات الدينية طرافة (بالنسبة لنا) واتخذنا سبيلنا للتجول فى الأحياء العربية ومعرفة ما بها ٠

وقد قدمت لنا الأحياء الشرقية فى القاهرة صورة خصبة من حيث اللون والتأثير جذبت اهتمامنا ، ولا يستطيع غير الشرق أن يقدم لنا كل ذلك ٠ دعونى الآن أشير الى بعض المسائل التى جذبت اهتمامى ، وان كانت أمور الشرق تحتاج لمساحة أكبر ودراسة أدق وجهد خاص لتسجيل خصائصها بدقة وتفصيل ٠

لقد مررنا بين محلات وأسواق ومقاه حيث الجلبة المتولدة عن حياة العرب ــ لنصل الى أول مقاصدنا وهو المسجد القديم (٢٧) ذى الطابع التاريخى ٠

(★) الغلمان الذين يرتلون فى جوقة الكنيسة ــ (المترجم) ٠

لقد كانت الطرقات الضيقة مسقوفة فى كثير من المواضع بالحصر أو السجاد لحجب الشمس ، وكانت المنازل مبنية بالطين وبها نوافذ ناتئة مدورة (مشربيات قوسية (bow window (*)(٢٨) جميلة وأخرى مشبكة خاصة بالحريم ، وكل حليها (٢٩) ورخامها على النمط العربى • انه مزيج مدهش يحلو للمرء النظر اليه • لا شيء يتسم بالتناسق (السيمترية) ومع هذا فكل شيء يستحق التأمل بل ويستحق أن يسجله فنان بريشته فحتى الخرائب تعطى للصورة تأثيرا ينم عن خصائص الأصالة الشرقية •

لقد دخلنا ساحة the Court مسجد الحسنين وهو مسجد كبير وجميل ، بنى احياء لذكرى الحسن والحسين أولاد (الامام) على زوج ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد استشهد الحسين فى معركة كربلاء سنة ٦٨٠ للميلاد ، وتم الاحتفاظ برأسه فى هذا المسجد ويعقد احتفال كبير كل سنة احياء لذكراه طول أربعة عشر يوما فى شهر ربيع الثانى ، وهو الشهر الرابع فى السنة الهجرية(٣٠) •

وقد خلعنا نعالنا وصحبنا درويش لطيف الى داخل المبنى ، وكان مبنى المسجد من الداخل حسن العمارة ثرى الزينة •

لقد كان يجلس فى حلقة عدد من الناس تدل أثوابهم الشرقية على الثراء ، على سجاجيد فاخرة وراحوا يقرءون بصوت خفيض تفسير القرآن (الكريم) من كتب قديمة ، وفى الوقت نفسه يقوم شيخ عالم بشرح لبعض الفقرات المهمة وهو جالس وسط حلقة المؤمنين • وراح آخرون يركعون ويسجدون وهم يولون وجوههم صوب مكة (المكرمة) •

وفى هذا المسجد كما فى المساجد الأخرى يتم تزيين المحراب بالمخمل الأخضر وهو يشير الى اتجاه الكعبة أكثر

(*) المقصود به مسجد الحسين كما سيتضح ـ (المترجم) •

الأماكن ــ على ظهر الأرض ــ قداسة عند المسلمين • وتتدلى ثريات ضخمه من القبـة ، ولا تقـل التصميمات الشرقيـة الأصيلة داخل المسجد ، في جذبهـا لانتبـاه الغرباء ، عن سلوك المؤمنين المترددين على المسجد •

وفي سـاحة مجـاورة للمسـجد توجـد ميضاة جميلة يرتادها المسلمون للوضوء • ان نظرة لهذا الحوض بحوافه من الحجارة المصقوله تعطينا انطبـاعا بالنظافة الـفائقة • وبمزيد من البحث يتأكد الانسان أن القرآن الكريم فرض على المسلمين النظافة فقبل أن يدخـل المسـلم أكثر المواضع طهارة في المسجد عليه أن يتوضأ • والمسـلم يبدأ وضـوءه وهو جالس ويتمتم ببعض الأدعية أثنـاء ذلك • ويمنعني الأدب واللياقة من الاغراق في الوصف أكثر من ذلك • وبعد اتمام الوضوء يتوجه المسلم الى بيت الله • ولقد لاحظت مرات عديدة أن عددا من الأشـخاص يذهبـون للميضأة في وقت واحد ، مع أن هذا الحوض الصغير (الميضأة) به ماء غـير متحرك فليس له مسرب (بفتح الراء) يدخل الماء منه وليس له مخرج ، فالماء فيـه غـير جار ، وفي كل ممرات المسـجد وأروقته تجد زرافات من الناس يدخلون ويخرجون ولمعظمهم منظر لافت للنظر بعباءاتهم الطويلة ، ويناشـدك المتسولون المصابون بالعرج أو الشلل بمنظرهم المرعب أن تدفع لهـم الصدقات • وبينما كنا نغادر المسجد وجدنا رجلا كبير السن ذا لحة بيضاء ، يرتدى لباسا شرقيـة فخمة ويعتم بعمـامة خضراء اشارة الى أنه شريف (من نسل الرسول صلى الله عليه وسـلم) ، وجدناه يترجـل من فوق حصـانه القـوى ذى السرج الفاخر وسـلم رسـنه (بفتح الراء) للخـادم الذى يتبعه ، ثم دخل بيت الله بوقار •

لقد كان هذا الشرقي المميز صورة حية جعلتني دوما أتخيل الحكماء في الخرافات الشرقية الرائعة ذات المغزى •

واتخذنا سبيلنا بعد ذلك للجامع الأزهر الشهير ويرجع تاريخه الى تاريخ القاهرة ذاتها ، وقد بدأ بنيانه جوهر قائد جيوش الخليفة المعز • ويتطلب وصف هذا المبنى (المسجد) العتيق أن نرجع لتاريخ القاهرة •

فعندما استولى عمرو بن العاص قائد جيوش الخليفة عمر على حصن بابليون الذى يقع فى القاهرة القديمة الان (حى مصر القديمة) (٣١) وبدا يتخذ طريقه للاسكندرية بنت حمامة ـ فيما تقول الحكاية ـ عشها عند الخيمة التى كان عمرو يقيم فيها أثناء الحصار وبدات ـ أى الحمامة ـ تضع بيضها ، فامر القائد عمرو بعدم هدم الخيمة حتى لا تنزعج الحمامة • والكلمة العربية الدالة على الخيمة تعنى المسطاط fostât (٣٢) •

وعاد عمرو الى خيمته هذه بعد أن استولى على الاسكندرية فوجد حولها مدينة تحمل اسم الفسطاط فبنى عمرو بنفسه هذا المسجد فسمى بعد ذلك جامع عمرو ، وعندما استقر العرب فى عهد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فى وادى النيل أصبحت الفسطاط هى حاضرة (عاصمة) مصر التى تقيم فيها الحكومة ، وعندما زار الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) بن هارون الرشيد مصر كان بالأزهر فعلا مدرسة لتلقى العلم ، وزاد ازدهار الفسطاط تحت الحاكم أحمد بن طولون الذى أعلن نفسه سلطانا على مصر (٣٣)، وجعل الحكم فيها لورثته • وفى غضون حوالى مائة عام فقدت الفسطاط وضعها كعاصمة فعندما استولى جوهر قائد جيوش المعز الذى أعلن نفسه خليفة فى المغرب (تونس) على الفسطاط باسم سيده المعز، قام بتأسيس عاصمة جديدة غير بعيد عن الفسطاط ، ولما قدم المعز لمصر استقر فى هذه العاصمة الجديدة وأسماها مصر القاهرة Masr el-Kahira وهكذا أصبحت القاهرة عاصمة لامبراطورية الخلفاء الفاطميين ، وسرعان ما نمت وتطورت تطورا سريعا •

والمعز هو ابن العزيز بالله وخليفته هو الذى أسس جامعة الازهر the University el-Azhar ، وقد امتدت المدينة الى باب النصر وباب الفتوح (وهما البوابتان الأثريتان اللتان سنتحدث عنهما فى ثنايا هذا الفصل) فى عهد خليفته الحاكم • ولم يبذل صلاح الدين الأيوبى الذى بنى القلعة واحاط القاهرة بسور جهودا كبيرة كالتى بذلها الفاطميون لتطوير المدينة • وقد زين كثير من السلاطين المماليك القاهرة بمبان جميلة خاصة قلاوون والأشرف خليل وحسن (١٢٤) وبرقوق وقايد بك والغورى ، ورغم هذا فقد كان سكان القاهرة ـ وهذا حقيقي ـ يعانون من استبداد المماليك وجشعهم وسلبهم اياهم بشكل لا يحده حد • وفى سنة ١٥١٧ وضع السلطان سليم الأول العثمانى نهاية لتطور القاهرة ونموها : فبعد انتصاره فى معركة عين شمس استولى على القاهرة عنوة ، وشنق طومان باى آخر سلاطين المماليك على باب زويلة فى ١٥ أبريل ١٥١٧ ، واختفت القاهرة من صفحات التاريخ ولم تدخله مرة أخرى الا أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر •

لقد كانت كل هذه الحوادث التاريخية منذ أيام الاسلام حاضرة فى فكرنا ونحن ندخل الجامع الأزهر الذى تحول الى جامعة (مدرسة) فى عهد الخليفة العزيز بالله (٩٧٥ ـ ٩٩٦م) ولازال الجامع الأزهر هو أكثر الجامعات شهرة فى الشرق ، وهو بمثابة معمل لتفريخ التعصب الاسلامى (★) and Likewise the breeding place of Mohammadan fanatism.

(★) هذا يبين بوضوح أهمية الازهر الشريف فى الحفاظ على روح مصر ، ويلاحظ المترجم تحامل معظم الرحالة الاجانب ضد الازهر الشريف وتفضيلهم الاسلام اللاعقلاني ـو غير العملى أو اسلام الدراويش • راجع مقدمة المترجم •

ومبنى المسجد واسع جـدا وصفوف الاعمدة فيه يتبع بعضها بعضها الاخر ، والاروقة متتالية ، وقد آمتعت نفسي بملاحظة أساليب الحلاقين الشرقيين العريقين الى جانب بوابة الجامع الرئيسية • لقد جلس هؤلاء الحلاقون متربعين عـلى الأرض وآمسكوا برءوس ضحاياهم (زبائنهم) بين ركبهم وواصلوا تفريشـها بالصـابون اللاذع وراحـوا يحـكون بأمواسهم رءوس الزبائن حتى غدت ناعمة كالزجاج • فالمسلم الحقيقي يجب ألا يكون في رأسه شـعر (٣٥) ، فلا أحـد من المسلمين يحتفظ بشعر لرأسه سوى أفقر الفـلاحين أو البدو غير المتحضرين • وفي المدن تعتبر الرأس الصلعاء دالة من دلالات الجمال •

ويقوم الحلاقون بحركات رشيقة أثناء تزيين زبائنهم وقص شعورهم وغسل رءوسهم وتعطيرهم بعطر زيت الورد وغيره من الدهانات العطرية مما يروج لنشـاطهم (يمثـل دعامة لعملهم) •

ثم مررنا بمسجد آخر صغير تابع للجـامع الأزهر في الساحة الواسعة ، وبه آحواض (ميضأة) ، والممرات المحيطة به مقسمة بعوازل خشبية ، ويوجد في جدرانه شبابيك مغطاة بخشب مشغول Lattices يحفظون فيهـا المخطوطات ، وفي الجانب الشرقي للساحة يوجد الرواق الواسع للمسجد وتراه مزينا بثلاثمائة وثمانين عمودا من الرخام العادى والرخام السماقي والجرانيت وقد تم تزيينها بقطع أثرية تم حشدها جميعا بدون مراعاة كبيرة للتناسق • وثمـة أربعـة أروقة للصلاة كل رواق منها لواحد من المذاهب الاسلامية المعترف بها : المذهب الشافعي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الحنفي والمـذهب الحنبلي ، وهـذه الأروقة يفضي بعضها الى بعضها الآخر عند المؤخرة • وتتـدلى من السـقف مصـابيح ملونة لا حصر لها وتوجد ــ حجرة مزينة جانبية يوجد بها مقـام (قبر) الشيخ (الولى) عبد الرحمن كخيا Kichya .

وعلى أية حال فان أكثر المشاهد جدارة بالملاحظة هو الطلاب البالغ عددهم عشرة آلاف ، والقادمون من مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، والذين يزدحمون فى كل موضع فى المسجد ، ليس فى الأروقة فحسب وانما فى الممرات والصحن وكل مكان فى هذا المبنى الضخم .

انك ترى هنا كل أجناس البشر من الزنوج السود الى الشركس Cherkesse الصفر الشاحبين . كل الاجناس ممثلة هنا . ان التنوع الشديد فى الألوان والأزياء يبهج عين الرائى بل ويرى المرء البدو الواعين بعباءاتهم البيضاء يجلسون بين الطلاب كطلاب .

ويجلس المعلمون (المشايخ) على مقاعد مرتفعة فى سقائف صغيرة مصنوعة من جريد مشبك ومضفر . ان منظرهم مضحك للغاية ، فمعظمهم طاعنون فى السن وغالبهم من أصحاب العاهات وقد لبسوا الملابس الشرقية ووضعوا العمائم على رءوسهم والنظارات متدلية على أنوفهم . وهم يصرخون بصوت عال أثناء القاء محاضراتهم على سامعيهم ويومئون ويشيرون اشارات لم أر أسخف منها . وليس أمام هؤلاء الأساتذة (المشايخ) الا نسخ قديمة متربة من القرآن (الكريم) (★) مصدر المعرفة الشرقية التقليدية ، ويستعينون بعصا طويلة من الغاب (البوص) لحفظ النظام بين طلبتهم ودفعهم للانتباه ، ويتحلق حول كل مدرس (شيخ) شباب فاترون لا يبدو عليهم الاهتمام وقد تربعوا أو جلسوا القرفصاء أو اضطجعوا فوق التراب . وبعضهم يصغى وآخرون يكررون بصوت عال خلف مدرسهم (شيخهم) . ويمكنك أن تتصور مدى الازعاج فى هذه المؤسسة التى تسمى جامعة أو مدرسة عليا . انه مشهد مربك حقا بالنسبة لأى أوربى ، فمن الصعب علينا نحن الأوربيين أن نتصور

(★) النص : Old dusty Koran books, the Pros and Cons of Eastern love.

ان الأمور تجرى على هذا النحو فى جامعة القاهرة (المقصود الأزهر) ذات الشهرة المريضة فى العالم كله •

وبعد أن مكثنا قليلا غادرنا الغرف الحارة التى كانت تنبعث منها رائحة مرعبة ، وتحوم فيها جيوش من الذباب تحث الغريب على التراجع والعودة من حيث اتى •

وكان علينا بعد ذلك أن نمر بثلاثة مساجد كانت تتميز بألوانها الزاهية ومآذنها الشامخة : جامع السلطان قلاوون الذى يرجع الى عام ١٢٨٧م ، وجامع محمد الناصر الذى يرجع للقرن الثالث عشر الميلادى ، وجامع برقوق الذى يرجع للقرن الرابع عشر الميلادى ، وفيما عدا القيمة التاريخية لهذه المساجد فلم يكن بها كثير مما يثيرنا •

أما بوابة النصر ، فقد جذبت انتباهنا أكثر مما جذبته هذه المساجد ، فقد كان — على جانبيها — برجان مربعان ، وذكرتنا أحجارها الداكنة الوقور بتاريخ العرب فى العصور الوسطى •

ولما عبرنا هذه البوابة تتبعنا طريقا قادنا الى ما وراء مقبرة قديمة للمسلمين فوق أكوام من الأحجار والبقايا ، على طول سور القاهرة الداكن حتى باب الفتوح الشهير • وكلتا البوابتين آنفتى الذكر (باب النصر وباب الفتوح) ، قد تم انشاؤهما فى عهد المستنصر الخليفة الفاطمى • لقد عدنا الآن الى جانب أكثر حيوية فى الحى العربى ، لنتفحص بعناية كاملة النشاطات المتعددة داخل السوق •

ولا يستطيع أن يصف أسواق القاهرة وصفا مفعما بالحياة زاخرا بالألوان الا كاتب محترف عركالرحلات وجاب الأقطار ، فوصف هذه الأسواق ليس مهمة سهلة ، لذلك فسوف أكتفى بالكتابة عن قليل من المشاهد المتميزة التى تقدم صورا حية لها خصوصية متفردة •

فشارع الموسكى يقطع المدينة العربية القديمة ، ويبدأ هذا الشارع من ميدان العتبة الخضراء ويستمر حتى مقابر الخلفاء • وهذا الشارع هو عصب (شريان) حياة القاهريين ذات الطابع الشرقى •

فهذا الشارع يقدم لنا صورة صادقة للعاصمة الشرقية ، فهو ليس عريضا ، ومبانيه غير منتظمة كما انه غير مرصوف ، ورطب ، وتتجمع فيه الاوساخ من كل نوع ، وهو مسرح لمعارك بين مالا حصر له من الكلاب الشرسة ، وقد سقف الشارع بالحصر ، ويعج بضوضاء تجلب الصمم ، وتنبعث منه روائح نتنة تثير القرف والاشمئزاز •

وفى مقدورك ان ترى هنا فى شارع الموسكى كل الجماعات الشرقية التى تخطر لك على بال بمظاهرهم المختلفة والوانهم المتباينة : رجال ذوو عمائم وعباءات واسعة غير داكن لونها تسر الناظرين ، وعسكر ، وبدو ، ويهود فى ازيائهم التوراتية (التى ورد ذكرها فى التوراة) واتراك، واهل اسيا الصغرى ويونانيون وميديون ومن الشرق الأدنى وارمن ، أغنياء وفقراء ، وفلاحون فى ثياب زرق وفلاحات حملن أطفالهن على صدورهن ، ونسوة ثريات يركبن حميرا ويتبعهن خصيانهن eunuchs يحرسونهن ، وراكبو الجمال ، والبغال المحملة بالبضائع ، والنوبيون داكنو البشرة ، والزنوج الخلص ، والمواكب الدينية الاسلامية Mohammedan Processians ، والدراويش المبروكون والتجار والمتسولون الذين بترت أعضاؤهم، والسقاؤون وقد حملوا القرب الجلدية فوق ظهورهم ــ كل هؤلاء سيتحركون غدوا ورواحا فى فوضى مربكة •

والأصوات المزعجة تؤذى الأذن الأوربية وتكاد تصيبها بالصمم أو تجعل فيها وقرا • فالضوضاء تنبعث من الزحام وكأنها زئير ، أضف الى هذا أنين المتسولين المرير ، وصيحات السائقين ورنين النقود وصلصلتها وقعقعة الكئوس والأكواب

عند اصطدام بعضها ببعضها الاخر ، وصياح الباعه الجائلين وبائعي القهوة (القهوجية) مادحين بضاعتهم بمبالغة وتبجح، وجئير الجمال ونباح الكلاب والصيحات التحذيريه التي يطلقها الحمارون ، وأصوات السياس وهم يجرون أمام العربات التي تجرها الدواب ٠

انها مناظر جديدة تصافح عيون الغرباء في كل منحنى، وتظل هذه الحركة الدائبة من الصباح الباكر ، حتى وقت متاخر من الليل على طول شارع الموسكى ٠

وتمتد الأسواق ذات اليمين وذات الشمال داخل ازقة وحوار ضيقة وساحات ــ وهيئة المنظر كله تمثل سوقا شرقية أصيلة تعرض البضائع الشرقية في مبان صممت عمارتها لتعطى طابعا وطنيا أصيلا ، والاهم من كل هذا من حيث صبغ السوق بطابع شرقي هو سلوك المشترين والبائعين ٠

وسوق الحمزاوى هي سوق التجار المسيحيين ، اما سوق العطارة فتسمى سوق العطارين ، وثمة سوق يقال لها سوق الفحامين Fahhami وهي زاخرة بالبضائع التونسية والجزائرية ، أما حي الجواهرية (الجواهرجية) ففي الحى اليهودى ، وخلفه سوق الصاغة ، وأخيرا سوق النحاسين ، وقد تفحصنا هذه الأسواق جميعا ٠

وقد اشتريت بعض الحلى العربية ودرعا قديما الى حد ما ، وبعض المشغولات الذهبية والفضية ٠ لقد كان البائعون المعممون يجلسون في محلات مفتوحة متربعين With Crossed legs (*) وارتدوا ملابس فضفاضة وراحوا يدخنون الشيبوك أو يشربون القهوة ، ويتابعون الغريب بنظرات متفحصة لمعرفة هدفه ، فاذا ما أدركوا أنه جاهل أو ليس له معين ولا يدرك طرق الخداع الشرقية ــ

(*) يمكن ان يكون المعنى « وقد وضعوا ساقا على ساق » ، لكننا فضلنا ما أوردناه في المتن ، لعدم وجود اشارة الى مقاعد ــ (المترجم) ٠

راحوا يتحدثون بحرية بلغتهم ليفرضوا عليه أغلى البضائع، ويضيع الأوربى التعس اذا لم يدركه المترجم الماهر بمدد من العون . فقد يعود الأوربى لوطنه محملا ببضائع قد تكون مغشوشة ، وبها ــ بالتأكيد ــ بعض العيوب ، بعد أن يكون قد خسر ماله كله • وفى السوق يؤكد العرب أنهم جنس سامى حقا كاخوانهم اليهود وأنت لا تستطيع أن تميز بينهما ــ العرب واليهود ــ الا بمشقة •

وأكثر أسواق القاهرة اثارة وتشويقا هى سوق خان الخليلى Chan-Chalil . فلهذه السوق حى خاص بها ، ويعود تاريخها الى السلطان المملوكى الأشرف صلاح الدين خليل •

ففى هذه السوق تجد الحياة الشرقية مفعمة بالحركة المختلفة والنشاط المتباين • انك تجد أكثر البضائع أصالة ومن كل الأنواع ، وكلها شرقية ، بالاضافة الى منتجات زنجية ، خاصة من السودان •

وفى سوق السجاد ذهبت الى ساحة (حوش) منزل تاجر ثرى ، وبسط هذا الرجل العجوز باعتزاز يفوق الوصف سجاجيده الراقية الثمينة • انها سجاجيد تركية وعجمية (فارسية) ثمينة جدا ــ خاصة العجمى منها •

وبعد أن قضينا ساعات كثيرة فى الأحياء العربية فى المدينة عدنا أدراجنا الى الموسكى ، بعد أن مررنا بشوارع مزدحمة وضيقة • وأول ما لاحظته تلك الحشرات التى لا حصر لها • ملايين من الذباب الكبير الأسود تملأ الشوارع وتحلق حول الشرقيين ، فلا يذبها الواحد منهم بعيدا عن وجهه بل يسمح لها بأن تحط على وجهه فتكاد تغطيه • وهذا الذباب يحمل القاذورات والعدوى الى العيون وهذا يفسر أن عددا من الأشخاص مصابون بالعمى وآخرون مصابون بأمراض عيون تجعل مناظرهم تدعو للقرف والاشمئزاز • وبشكل عام فان المرء يرى فى الشوارع العرج والمشلولين

وأناسا مصابين بعاهات وأمراض وتشوهات بعضها لا يخطر على بال أوربى .

وفى الموسكى استأجرنا حميرا . وهى حيوانات هزيلة مزودة بسروج (برادع - والجمع بردعة) ويستخدمها الألوف لقطع القاهرة من طرف الى آخر ، وهى بذلك تحل محل العربات التى تجرها الخيول فى أوربا (الكابات Cabs) .

وسارت بنا الحمير بخبب سريع حينا وبعدو حينا اخر ويحثها الحمارون السائرون خلفها ، فقطعنا شارع الموسكى كله وعبرنا الحى الأوربى وعبرنا ترعة الاسماعيلية الى حى شبرا ثم عدنا لقصر النزهة .

وبعد ان مكثنا قليلا ذهبنا لنائب السلطان (الخديو) Viceroy ، لزيارته زيارة مبدئية وان كان ميعاد الزيارة الرسمية لم يحن بعد . وكان قصره الذى يصرف فيه أمور البلاد يقع فى الجانب الغربى لمدينة القاهرة الحديثة ، وهو مبنى ضخم على النسق الأوربى تماما ، فليس به أى طابع محلى خاص .

وقابلنا الخديو بود شديد وفقا للعادات الشرقية ، وقدمت لنا القهوة الممتازة فى فناجين تركية صغيرة ودخنا الشيبوك .

وسرعان ما انتهت الزيارة ، فاتخذنا طريقنا عبر الحى الأوربى ثم مرة أخرى عبر الأحياء العربية ، حتى وصلنا لجامع السلطان حسن القريب من القلعة . انه مسجد ضخم عتيق ، لكنه - للأسف - مهمل اهمالا جسيما ، مع أنه أجمل الجوامع التى رأيتها فى القاهرة فهو مبنى على طراز عربى صميم ، ومن المحزن أن أقول ان قبر السلطان الميضأة والأروقة - كل ذلك مخرب .

وعلى أحجار الأرضية يرى المرء آثار دماء لازالت باقية منذ ايام مذبحة الانكشارية الأولى سنة ١٣٥١ .

وعدنا لمصرنا سالكين اقصر الطرق لنتناول افطارا سريعا خفيفا ، لنبدأ من جديد رحلة الى الاهرامات بأربعة خيول ، وحوذيين .

لقد كان الطريق الذى سلكناه يمر - أكثر من مرة - خلال كل المدينة ذات الطابع الاوربى حيث للمبانى تصميم أوربى الا انها ذات زينات وزخارف شرقية ، فكانت جذابة بفضل هذا المزج بين ما هو شرقى وما هو غربى . لقد ابهجتنى البساتين الناضرة بأزهارها الفواحة وشجيراتها ونخيلها التى تداعب النسائم أغصانها وجريدها ، ورايت وسط المدينة عددا من الطيور الجارحة : آلاف الحدءات تحلق فى الجو أو تقف على الأسطح ، وصقور الجيف التى تنقض فى الشوارع . وسمعت أغانى الطيور وهديل الحمام وغمرت نفسى فى النسائم الشافية لمصر المقدسة ، متذكرا شتاء أوربا القارس الذى هربت منه ذات مرة .

وعند قصر النيل الفسيح عبرنا النهر المقدس وجزيرة بولاق وتجاوزنا بعض الفيلات Villas الخاصة بنائب السلطان (الخديو) وبعض الحدائق البهية ، وسرعان ما وصلنا الى طريق مرتفع تحفه الأشجار ويمتد بشكل مستقيم بين الأراضى الزراعية ويمر ببعض القرى العربية البائسة حتى حافة الصحراء .

★★★

لقد سارت بنا المركبة مسافة بضع مئات من الخطوات فى الرمال الصفراء للصحراء الليبية (الغربية) ، وتوقفت عند قاعدة تكوينات عملاقة تطل علينا من عمق آلاف السنين من تاريخ العالم . ان كل رحالة يحملق - للمرة الأولى - فى هذه الآثار (الأهرامات) الباقية من أزمنة سحيقة لتغشاه رهبة من نوع خاص ، أيمكنه أن يلمس بيديه أحجارا ظلت

باقية منذ أيام ما قبل ابراهيم (الخليـــل) • انهـــا لازالت باقية بسبب جهد الانسان ومهارته •

ولئن وصـــفت أهرام الجيزة لكررت اذن عمـــلا قدمه غيرى أكثر من مرة ، فقبور الأسرات الحـــاكمة التى تعـــود للعصور القديمة تغوص الى مستوى الريجى (؟؟).(★) [illegible] level of a Rigi • ويسىء السائح الغربى الى هذه الأحجـــار الجليلة فهو لا يدرك كنه دلالاتها •

لقد رأينا أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع • كما رأينا (أبو الهول) وقد غطت الرمال نصف جسده ، وشرع بعض العرب فى تسلق الهرم الثانى لطرد حيوانات ابن آوى الكامنة بين صخوره ، ولسوء الحظ فاننا لم نكن نتخذ موقعا جيـــدا لذا فان اثنين من هذه الحيوانات قد هربا دون أن يلحق بهما أذى وانسلا الى الصـــحراء الشاســـعة بين الـــوديان الجـــافة والتلال • وقد أطلقنا بعض الطلقات من موقعنا عنـــد سفح الهرم على هذه الحيوانات وهى تهبط مسرعة قافزة برشاقة غير معتادة بين الأحجار ، لكن أيا من طلقاتنا لم يصب هدفا ، فقد كانت المسافة بعيدة جدا •

وقد أعطتنى الأهرامات انطباعا ــ خاصة عندما يتسلقها انسان أو حيوان ــ انها أقرب ما تكون جبال صناعية عظيمة شيدها الانسان أكثر من كونها أثرا معماريا •

وغربت الشمس وسبحت المرئيات فى بحر من الضياء البهية ، وتألقت أحجار الأهرام الرمادية كالذهب ، أما وادى النيل ومساكن القاهرة والقلعة والمقطم من وراء ذلك كله فقد صبغت بدرجات من اللون القرمزى • وكان علينـــا أن نسرع بالعودة الى مقرنا فسلكنا الطريق الذى جئنا منه •

(★) لم نفهم المعنى المقصود ، فقدمناه كما هو ــ (المترجم) •

وفى حى شبرا وجدنا نشاطا صاخبا فثمة من يركبون خيولا عربية جميلة ، وثمة مركبات تسير فى صفوف رائحة غادية • انه منظر ينم عن الحيوية والنشاط والمرح لا يمكن رؤيته الا فى بلاد الجنوب • وذلك بعكس الحال فى بلاد الشمال حيث الدورسكيات (عربات ذات عجلتين او اربعة تشيع فى بلاد أوربا خاصة روسيا ووسط أوربا)(٣٦) التى يرتعد سائقوها فى أمسيات شهر مايو • وثمة مركبات كبيرة وجميلة على نسق المركبات الأوربية، لكن كل خدمها والعاملين عليها يرتدون جميعا الطرابيش • ويركب المسلمون الاثرياء والباشاوات وأهل الشرق الأدنى واليونانيون الاغنياء مركباتهم لتنسم نسائم المساء الباردة ، وقد سعدنا غاية السعادة بركوب (الحناطير) التى يقودها (عربجية) شرقيون • وكان يجلس خلفها طواشية (أغوات) سود بملامحهم البغيضة القاسية ، وقد ارتدوا أزياء نصف أوربية — وهم فى وضعهم هذا يسدون مسد الخدم أو جنود الحراسة •

وفى داخل هذه المركبات (الحناطير) توجد زوجات الموظفين الكبار وزوجات عدد من البشوات ، بل وحتى بعض الأميرات • وكلهن يرتدين الملابس البيض الشرقية وتبدو من خمرهن البيض عيونهن السوداء المتألقة ، وملامحهن الجميلة وحواجبهن المزججة على هيئة أنصاف الأقواس ورموشهن الطويلة • أما الفقراء فيركبون الحمير والمركبات البائسة (الدورسكيات) •

وعند وصولنا لمقرنا ارتدينا ملابسنا سريعا وذهبنا لقصر الخديو وتناولنا عشاء فاخرا كان قد دعى اليه النظار (الوزراء) وقناصل العموم Consuls-general ، وتم تقديمنا هناك لاخوة الخديو ، وكان القصر على النسق الأوربى أما الخدم فكانوا جميعا أوربيين فيما عدا أولئك الذين يقدمون القهوة والشيبوك •

وبعد العشاء ذهبنا مع الخديو الى حدائق الازبكيه الواسعه التى تقع داخل المدينة حيث اقامت الجاليه النمساوية المجريه مهرجانا ترحيبا بنا • فعلقت المصابيح فى الاشجار وجرت الالعاب الناريه وابدى الراقصون والمغنون مهاراتهم فى خيام معدة لهذا الغرض ، وصدحت الموسيقى العربيه ، ولعب الحواة بالافاعى واكلوا النيران واستعرضنا الرواة (القصاص) والزنوج والنوبيين وشاهدنا مسرح العرائس• وباختصار فقد كان معرضا لكل الفنانين من هده الطبقة التى يختص بها الشرق •

لقد تم فتح بوابات الحديقه — لسوء الحظ — فى وقت باكر جدا فازدحمت ازدحاما شديدا فكان من المستحيل ان نتجول فيها بحرية • لقد كنا نتعرض بشكل مستمر لاحتكاك الجموع بنا ، ولم نستطع الا بمساعدة بعض أهل دلماشيا بثيابهم الكاملة ، الذين شكلوا جدارا بشريا حولنا — ان نصل الى البوابة ومن ثم لحافلاتنا التى تنتظرنا خارجها • وسرعان ما وصلنا لمقر اقامتنا ، وبعد هذا اليوم الحافل كان الخلود للراحة هو أفضل تكريم لنا •

وفى صباح اليوم التالى سرنا خلال جانب كبير من المدينة الأوربية (ذات الطابع الأوربى) فى طريقنا لمتحف بولاق فى الطرف الجنوبى لجزيرة بولاق •

ويضم هذا المتحف احدى أثرى المجموعات من الآثار المصرية وأكثرها شهرة ، وهو مبنى فسيح الأرجاء جيد التنظيم يضم مالا يقدر بثمن من كنوز الآثار التى تعود لقصر الفراعنة القديم ، ويتولى ادارته فرنسى خلف ماريت باشا Mariette الأثرى الشهير الذى وافاه الأجل مؤخرا ويشغل برجش باشا Brugsch عالم المصريات الشهير هو الآخر منصبا فى هذا المتحف • وقد دلنا على أكثر قطع المجموعات اثارة وأهمية • ووصف متحف بولاق

يتطلب استعدادا علميا فائقا بالاضافة الى أن قطعه قد كانت موضع دراسه ووصف فى كثير من الدراسات صدرت بالفعل • لقد تمحصنا كل شىء بعنايه فى غرف المتحف وفى حديقته الصغيرة ، وجذبتنى كثيرا بعض المياوات من عصور المسيحية الاولى فلم اكن اظن ــ قبل رؤيتها ــ أن مميـاوات من هذا النوع لازالت موجودة • لقد ذكرتنى بتألقها ومظهرها ذى الزينات الثرية ووجوهها السوداء بالسيدات البيزنطيات Byzantine Madonnas (★) وبعــد طــول تجــوال فى المتحف غادرناه الى مقر اقامتنا • وما كدنا نرتدى ملابسنا الرسمية (ملابس البلاط) حتى ظهر الباشـا الذى يتـولى أمور المجلس العسكرى Court Marshal تحت اشراف الخديو، ليرافقنا فى زيارتنا الرسمية (زيارتنا التشريفية) لسموه •

وركبنا مركبة فخمة مذهبة تجرها ستة خيول انجليزية ضخمة وجميلة ، وأحاط بمركبتنا الفرسان ، وتعلق بها من الخارج بعض الأشخاص ، وسارت المركبة فى رحلة طويلة الى قصر الخديو (نائب السلطان Viceroy) وكان الطابع العام للحافلة ذا طعم خاص مميز ، فكان عـلى العـربة ذات التصميم الأوربى ما يشبه العباءة التى تطرح عـلى الأذرع وعليها هلال ونجمة أما الحـوذى والمتعلقـون بالعـربة من الخارج فكانوا يلبسون بذات غربية (أوربية) وان كانوا يضعون الطرابيش على رءوسهم ، وتقدم السـايس الموكب بزى شرقى كامل •

ووقف خلق كثير فى الشوارع وراحوا يحملقون فينـا يحفزهم حب الاستطلاع • وفى الميدان المواجه للقصر كانت فرقة من المشاة فى لباس أزرق فاتح يعزفون النشيد الوطنى وتبع ذلك تهليل عربى لاظهار الاستحسان فشرعت جمـاعة اثر جماعة تجأر (تصيح) وأفرادها يقدمون أسـلحتهم • وانتظرنا الخـديو بأبهتـه الكاملة كباشـا تركى تحيط به

(★) ربما كان المقصود صور العذراء فى الحضارة البيزنطية ــ (المترجم) •

حاشيته ، واتخذ كل منا مجلسه على مقعد فى القاعة الكبرى، واتخذ المجلس شكل دائرة ، وسرعان ما قدمت القهوة والشيبوكات المزخرفة زخرفات ثرية • وتقديم القهوة والشيبوك ليس مجرد ممارسة لبعث السرور لكنه أيضا يشير للاحترام والوقار ، على نحو ما يشير تدخين الغليون الطويل (الكاليوميت) ، وبعد انتهاء الزيارة عدنا لعقد النزهة فى حافلات ضخمة سارت فى موكب يتهادى •

وبعد عودتنا وصل الخديو سريعا ليرد لنا الزيارة • وعندما غادر القلعة قمت أنا والدوق الكبير باستقبال كل المقيمين النمساويين والمجريين وقناصل العموم وبعض من أراد رؤيتنا ، ومن بين هؤلاء رئيس أساقفة الاسكندرية وهو فرنسسكانى من مواليد دلماشيا ، وكان منظره مريحا بسحنته النبيلة ولحيته الطويلة • يا للبائس لقد غرق بعد ذلك واستقر جثمانه فى المياه العميقة ! •

وبعد قضاء بضع ساعات فى أمور المراسم والتشريفات، سمح لنا ، وخلعنا ملابسنا الرسمية وارتدينا ملابس الصيد، لنستعد للصيد فى هليوبولس ، بعد تناولنا الطعام • وقد صحبنا فى رحلتنا هذه البارون ساورما ، وان سبقنا الى مواقع الصيد أخوه والأمير تاكسس •

وكان علينا أن نسلك بعض الشوارع الا أننا سرعان ما تجاوزنا أخيرا بعض المنازل المتداعية على حافة الصحراء وفى الأراضى القاحلة • وقد رأينا عن شمائلنا مسلخا كبيرا دل على اقترابنا منه تحليق كثير من النسور آكلة الجيف • وعن أيامننا تجلى لنا منظر الصحراء الجميل وخلفها سلسلة جبال المقطم المرتفعة • وكانت طواحين الهواء Wind-mills والقبور التى اعتراها الخراب هى آخر المبانى فى منطقة الرمال •

والطريق محفوف بالارض الزراعية شيمه الزراعه ولكنه دائما ابدا قريب من الصحراء • وقطعنا الحدائق الحصر للعباسيه ولمصر توفيق بصفوف اشجارها الطليلة وبساتين البرتقال بهـا ، وبعد حوالى نصف الساعه وصلنا لشجرة مريم tree of Mary التى تنتصب بين شجيرات وحدائق شيمه • وتوقفنا لننظر الى شجرة الجميز Sycamore التى استراحت تحتها العائلة المقدسة فيما تقول الروايه (النص : فيما تقول الاسطورة Legend) • انها شجرة عتيقة يلاحظ فى فروعها عقد كما ان حجم جذعها وسماكة لحائها يسترعيان الانتباه • لقد كانت رؤيتنا لهذه الشجرة أفضل مكافأة للمشاق التى تكبدناها أثناء الزيارة • لقد ذهبت جهودنا عبثا لاقتناص أى حيوان بمساعدة كلابنا فى مزرعة قصب سكر صغيرة ، وأخفقنا كذلك فى مزرعة نخيل (أشجار الأريقا Areca) (٣٧) •

وكان ما تبقى من الطريق يمتد على طول مطبات عالية ضيقة ، وكان السير فيه أمرا مرهقا للحافلات الثقيلة لكننا ــ على أية حال ــ اقتربنا من هدفنا لكن ببطء • وكانت الأراضى الزراعية تمتد على جانبى الطريق تتخللها القنوات ويزيد من بهائها أشجار الجميز ، وأشجار النخيل ذوات الحفيف • وثمة بعض القرى العربية الرمادية مشيدة مساكنها من الطين ولا تجمعات سكنية غير ذلك ، وعلى جانبى الطريق وطواله يرى المرء الفلاحين يعملون فى الحقول •

والجاموس يدير السواقى ، والجمال تحمل الاحمال وطيور أبى قردان (مالك الحزين أو البلشون (Leron تمشى خلف الفلاحين المسكين بالمحاريث ، وسعدت أعيننا برؤية طيور مختلفة ، ورأينا الى الجنوب الشرقى الصحراء وجبالها العارية وبعد فترة بدت لنا مسلة هليوبولس الشهيرة وقد أحاطت بها مروج خضر •

وهنا ــ فى هذه البقعة ذات الشهرة التاريخيه سأستعيد من كلمات صديقى برجش Brugsch باشا الوارده فى خطاب أرسله لى يتحدث فيه هذا العالم بالمصريات عن هليوبولس .
« عندما كان المسافر من منف Memphis فى العصور القديمة يعبر النيل ويدخل ما يسمى بالطريق المقدس الذى يؤدى فى الجانب الشرقى للنيل بعد بابليون (بالقرب من القاهرة القديمة) نحو الشمال ، فانه سرعان ما يرى على البعد عددا من المسلات التى تشير الى أنه أصبح قريبا من مدينة الشمس ذات الشهرة العريضة بسبب قدمها وتاريخها . انها تقع على حافة الصحراء وتختلط رمالها البرتقالية بأترية الحقول الداكنة . وقد تم انشاؤها كحرم لاله الضوء (النور) رع Ra الذى تشير اليه أقدم الكتابات على القبور الهرمية » .

« وتشير سجلات كل العصور اليه والى المدينة المجاورة باسم آنو Annu اقدم الأسماء وأكثرها شيوعا . وهى ذاتها أون On ، فى الكتاب المقدس ، التى قطنها رجل الدين بوتيفيرا Potiphera الذى قدم فرعون هذه الأيام ابنته اسنا Asnath ليتزوجها وزيره يوسف . وبالاضافة لاسم المدينة الذى ذكرناه ، فان المدينة وكذلك المعبد حملا اسم (بى رع bi-Ra) وتعنى « مدينة رع اله الشمس » ومن هذا الاسم أتى المسمى الاغريقى « هليوبولس » . ويعزى التخطيط الأول وكذلك الموضع للمهاجرين العرب الذين قدموا من الشرق الى الدلتا واستقروا فى موقع مدينة هليوبولس . وهذا هو الاحتمال الأرجح » .

« وقد قام هؤلاء القادمون الجدد ــ عباد الشمس والنجوم ــ بترسيخ شعائر دينهم فى هذه البقعة ، وقد أثرت أفكارهم الرائدة فى الميثولوجيا المصرية وشكلت خطوط عقيدة محددة ، كان يتم الافصاح عنها فى مدارس الكهنة باعتبارها السر الأساسى فى تعاليمهم ، حتى العصر ...

من التاريخ المصرى عندما زار الفلاسفة الاغريق كأفلاطون ويودكسس Eudoxus المدينة • وقد نجح هؤلاء الفلاسفة الاغريق انفو الذكر بمشقة فى حث كهنة هليوبولس العلماء على ان يشرحوا لهم بعض أهم العقائد ذات الأهمية الفلكية» •

« والأصل العربى للمدينة يبدو ـ دون عناء ـ خاصة فى عبادة طائر مكرس للشمس Was dedicated to the Sun وخصص له « حرم » فى معبد اله الضوء (النور) Light god وهذا الطائر العجيب كان يسمى العنقاء واسماه الاغريق فونكس Phoenix ، **والسجلات الأثرية** مليئة برحلاته من اراضى البخور العربية الى هليوبولس عند اكتمال الدورة الفلكية العظمى » •

« وهذا الطائر مألوف فى الآثار المصرية ، لكن السجلات المقدسة قد جردت هذا الطائر تماما من كل ما يحيط به من غموض (نزعت عنه طبيعته الغامضة) فلم يجد المؤلفون الاغريق والرومان حرجا فى وصفه • ووفقا للكتابات الهيروغليفية فان طائر العنقاء الذى يسمى باللغة المصرية القديمة بنو Benuu ينتمى الى جنس البلشون Ardea (★) الذى يتميز بريشه المتألق الذى يلمع كالذهب • واعتاد هذا الطائر أن يهاجر من الشرق الى مصر وقت فيضان النيل • ولم يربط الكهنة المصريون بين هذا الطائر والشمس فحسب بل ربطوه أيضا بنجمة الفجر التى تبشر بالشروق • ويمكننا أن نفترض دون أن نخدع أنفسنا أن مزارع أشجار البخور (ذات الأصل العربى) التى وردت فى النقوش تعتبر مرجعا دقيقا يشير الى احتراق العنقاء القديمة فى أعشاش من أخشاب البخور » •

« وتعد هليوبولس وكل المنطقة التى تعد حاضرة (عاصمة) لها احدى أقدم المواضع وأكثرها شهرة حتى فى عصور مصر القديمة » •

(★) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ـ (المترجم) •

« فهليوبولس ، بالاضافة الى منف وطيبة ، تعد معلما من معالم التاريخ · انها تمثل المرحلة الباكرة في التطور التاريخي للحضارة المصرية ، تماما كما كانت منف هي المرحلة التالية لهذه الحضارة ، وكما كانت طيبة هي المرحلة الزاهرة التي مثلت العظمة المصرية من القرن الثامن عشر الى القرن الثالث عشر قبل الحقبة المسيحية · وفي هليوبولس وجدنا المستوطنة الاولى للعرب الكوشيين kushite Arab في تجوالهم قادمين من الشرق · لقد امتلكوا بعد ذلك منطقة شرق الدلتا وأدخلوا عبادة الشمس ، واسسوا اول موطن ثابت لهم » ·

« وخلال العصور منذ أيام أقدم الأسرات الحاكمة ازدانت هليوبولس ، بفضل ملوك مصر ، بالمعابد والتماثيل والمسلات التي لفتت كثرتها واحجامها أنظار الكتاب العرب حتى في العصور الوسطى ·· أما البطالمة ـ بثقافتهم الاغريقية ـ فقد تركوا مخلفات من سبقوهم لم يمسوها بسوء ، بل وعملوا كل ما في طاقتهم لحماية المعابد من كل ما يدنسها ، وبدأ المستبدون الرومان في سرقة الأماكن المقدسة القديمة وتجريدها من آثارها ، فتم نقل مسلتين في عهد تيبريوس Tibèrus من هليوبولس الى الاسكندرية لتوضعا أمام الكاسيريوم Caesareum أو معبد القيصر · وتم نقل مسلات أخرى الى روما والقسطنطينية لتشير كشهود غامضة لعصور ما قبل التاريخ » ·

« ولم تبق الا مسلة واحدة في موضعها القديم ، وهي تلك الباقية شامخة الآن وسط الأرض الزراعية بالقرب من قرية Mulariya (؟) ويبلغ ارتفاعها من تحت سطح التربة من ٢٠ الى ٢٧ مترا · انها آخر ما تبقى من مدينة الشمس التي كانت عامرة ، كما أنها أقدم المسلات المعروفة والكتابات التي تغطي أحد جوانبها هي نفسها الكتابات التي تغطي كل جانب من جوانبها الأخرى » ·

« وتشير هذه الكتابات إلى الملك أوسرتاسن الأول Usertaser (الذى حكم فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد) باعتباره الآمر بانشائها ، كما تشير أن آقامة هذا النصب (بضم النون وتشديدها) الضخم المتناغم المصنوع من الحجر النارى الأسوانى لتتزامن مع بداية فترة فلكية من ثلاثين عاما ، او احياء لذكرى حلولها • وكانت رأس هذه المسلة فيما مضى مغطاة برقائق نحاسية لامعة سرقها العرب فى العصور الوسطى • والبقعة التى تنتصب فيها المسلة تشير أيضا لموقع المدخل الرئيسى لأقدم حرم لاله الشمس • وثمة أسوار تشبه المتاريس لتحديد الحدود لا تزال بقاياها قائمة تدل فى الوقت نفسه على الزمام الذى كانت تشغله مجموعة من المعابد • وقد نلاحظ ما هو أكثر مستدلين بالشواهد التى قدمتها برديات القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) أن هليوبولس كانت موقعا جيد التحصين ، وأنها كانت تمثل آخر حصن جنوبى من سلسلة خط الحصون الطويل الذى يمتد مارا ببباستيس Bubastis (الآن تل بسطه Tell Bast) وتنيس Tanis (وهى زون Zoan الواردة فى الكتاب المقدس وتسمى الآن صان San حتى ديوزبوليس Diospolis (الآن دمياط) الواقعة على البحر المتوسط ، تلك الحصون التى صممت لحماية حدود الدلتا ضد هجوم القبائل المتبربرة القادمة من الشرق » •

« والسبيل من القاهرة الى هذه الآثار القديمة أصبح الآن محددا بطريق مرتفع Cauaseway يمتد قرابة خمسة أميال (انجليزية) على طول حافة الصحراء ، وان قطعه فى أكثر من مكان وجود مزارع وأراضى بناء • فعندما تغادر باب الحديد فى مدينة الخلفاء (القاهرة) ينفتح الطريق أمامك تحفه الأشجار من الجانبين ، مخليا عينيك لتلقيا نظرة رحبة على الصحراء الى سفح المقطم (يقال انه من حجر جيرى

نميوليتى (Numulite Limestone . وثمة جبل منعزل (لا يدخل ضمن السلسلة) هو الجبل الأحمر تميل حمرته للدكانة ، وهو من أحجار سيليكونية Silicious ، يقطعها الناس بكثرة ليجعلوها أحجار رحاء (جمع رحى ، بفتح الراء والحاء) أما فى الأزمنة القديمة فقد كانوا يجلبون منه الأحجار المتينة لصناعة التماثيل وغيرها من المبانى التذكارية .. الخ ، فأحجار التمثالين الهائلين الشهيرين الخاصين بممنون Memnon فى الجانب الغربى لسهل طيبة قد جلبت من الجبل الأحمر » .

« وجهة اليمين يرى المرء قبور الخلفاء ومساجدهم تتوالى تباعا بغير انقطاع ، ومحطة ضخ شركة المياه القاهرية Cairene Water Company ، ومقابر حديثة للمسلمين والمقر الصحراوى لآخر نائب للسلطان Viceroy (★) عباس باشا ، وهو مخرب بكل ما فى الكلمة من معنى ، وثكنات للخيالة والمشاه ، وأخيرا خزانات ماء وبعض المبانى الصغيرة التى لا أهمية لها . أما الى اليسار فتوجد مزارع حى شبرا الخصبة ، أما الأكثر قربا من الطريق فهو قصر أم الخديو اسماعيل باشا ، ومساحات مخصصة للملاحظين الفلكيين والمختصين بالأرصاد الجوية .

وثمة طريق ظليل تعطره الأزهار وتزينه بساتين الأعناب وحدائق الفاكهة على أحد الجانبين يؤدى ــ غير بعيد ــ الى فيلا الخديو الحالى بالقرب القريب من قرية القبة (؟) Kubbe

ويرى المرء الحقول الغناء على أرض الصحراء الزراعية . وتبدو وكأنها تدعو للحياة بفعل سحر غامض . ان هذه الصحراء المزروعة تؤكد ما قاله نابليون ــ وهو قول حق ــ أثناء اقامته فى مصر : « اذا أتت الصحراء للنيل عم الخراب،

(★) لم نترجمها (خديو) هنا : لان هذا اللقب لم يمنح لأحد قبل الخديو اسماعيل .
(المترجم) .

أما ان ذهب النيل للصحراء عم الرخاء » • وفى الحقيقة فان رى الصحراء ريا دائما قد أدى الى ازدهار الخضرة ازدهارا ثريا قلما يوجد فى أى مكان آخر •

وبعد أن تكون قد استدرت أمام قصر توفيق باشا ، يتجلى لك سهل زراعى عريض خلف مزرعة أشجار زيتون • وهنا ، فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ حقق الجنرال كليبر بقيادته لعشرة الاف فرنسى نصرا باهرا على ٦٠ر٠٠٠ من المصريين والأتراك •

وخلف قرية المطرية ، الى يسار الطريق ــ ترى شجرة مريم « التى يتردد الناس عليها للزيارة كثيرا ــ وهى شجرة جميز لا يزيد عمرها عن مائتى سنة (أما الشجرة السابقة عليها فقد انتهت سنة ١٦٦٥) ويقال ان مريم وطفلها قد استراحا تحتها عند هجرتهم لمصر • وتروى الأرض المحيطة بالشجرة من الآبار ، وبعد ذلك أسماها العرب عين شمس Heliopolis Ain Sherus (*) .

وعلى بعد قليل من الحديقة الى الداخل فى الأرض الصحراوية توجد مزرعة نعام أسستها ــ مؤخرا ــ شركة فرنسية تحت اشراف رجل سويسرى هو السيد وتر Wetter ويتم تفقيس البيض بتعريضه لحرارة صناعية وتلقى الطيور الناتجة عناية فائقة • ومنذ أربع سنوات خلت أفرخت هذه الطيور ، وكانت آباؤها قد جلبت من السودان والحبشة • وفى مارس ١٨٨١ كان اجمالى عدد هذه الطيور ستين طائرا بين صغير وكبير وأنثى وذكر •

وعلى بعد نصف فرسخ من هذه المزرعة تقع خرائب هليوبولس التى وصفناها آنفا • وفى هذا المكان المنعزل تقف المسلة شامخة وحيدة شاهدة على أيام مغرقة فى القدم تحيى ــ من بعد ــ مسافر هذه الأيام ، ومنتظرة ساعة

(*) وهو خطأ مطبعى بالتاكيد والصحيح : Ain-Shmas والدليل المقابل الانجليزى Fountain of the sun ــ (المترجم) •

ســـقوطها واندثارها ، فاذا ما اندثرت ، اندثر باندثارها آخر شاهد على أرض مصر يدل عــلى أنه كانت هنــا مدينــة الشمس الزاهرة • وليس أمامنا الا آن نتوقع أن تتبع المسلات الأخرى فتنتقل الى مكان ما فى أوروبا أو أمريكا » • .

دعونا الآن نعد لخبراتنا الشخصية بعد هــذا العرض البليغ الذى قدمه برجش باشا Brugsch .

غير بعيد من المسلة يوجد بستان يمتلكه الخديو عامر بأشجار البرتقال وبينها ممرات تزينها الورود والنباتات الأفريقية • ولا تزيد مساحة الحديقة عن كثير من الحدائق الملحقة بالمساكن الريفية فى آوربا ، ويحيط بها سور طينى، وتقع بالقرب من قرية وسط أرض زراعية •

وحثنا البارون ساورما لنســتعد للصيد ، وبينما كنــا ندخل الحديقة (حديقة الخديو انفة الذكر) خطرت لى فكرة أننا سنجد هنا فى الغالب الأعم حمائم النخيل الافريقية او بعض طيور الجنوب الصغيرة ، لكننا سرعان ما تعلمنا شيئا مخالفا لما خطر ببالى • واختبأ عدد من الرجال تحت أشــجار البرتقال المحملة بالفاكهة بالقرب من الطريق الرئيسية التى تقطع الحديقة ، أما أنا فقد كمنت بالقرب من السور •

وأطلق ساورما كلبين ممتازين من نوع الدشهند وتابعت باهتمام بالغ ميدان الصيد • وبعــد دقائق قليلة ســمعت الطلقات ، أعقبها فاصل قصير من الســكون ، لــكن الكلاب سرعان ما نبحت فى الجانب المقابل ، فتركت موقعى لأقترب وأقترب ، وفجأة سمعت حركة حيــوان يأتى مسرعا من بين الأشجار يقترب فى اتجــاهى ، وفى لحظــة أصبح ابن آوى يقفز قفزة كاملة تحت الســور ، فأطلقت عليــه فهــوى ، فخلصت بغنيمتى بمشقة من الكلاب التى تبعتها فى الطريق

الضيق الملاصق للسور . لقد كان من نوع ابن آوى الأفريقى الصميم . أحمر مشربا بصفرة ، نحيلا ، طويل السيقان مذبب الأذنين . وكان هويوز Hoyas أحد رفاقى ــ محظوظا جدا فقد ضمن لنفسه ذئبة من النوع الأفريقى المعروف علميا باسم الذئب الشائع Canis Lupaster .

وظهر ذئب آخر بينما كنا نصطاد مرة أخرى فى الحديقة بمساعدة بعض أهل البلاد . لقد سمعت صوت تسلله بين الأشجار بل ان مساعد الصيد التابع لى رآه ، الا أن الحيوان الحذر استطاع الفرار بالقفز فوق السور دون أن يلحقه أذى . ورأينا أيضا اثنين من طيور الشنقب (٣٨) (بتشديد الشين وضمها وتسكين النون وضم القاف) ولم تصبهما طلقاتنا . وحلقت الكراكى (طيور الغرنوق) عاليا ، وانتشرت طيور مختلفة أنواعها بين أشجار البرتقال المورقة .

وغادرنا الحديقة بعد فترة صيد قصيرة ــ لكنها ناجحة ــ واتخذنا طريقنا لمقر اقامتنا . لقد غربت الشمس وزحفت الظلمة وظهر الشفق صابغا الغرب بلون احمر . لقد كان الطريق غير ملائم بما فيه الكفاية للسير فيه ليلا ، خاصة أنه طريق خطر بالنهار عند مجازه الضيق المرتفع ، لذا فقد رأينا أن نترك القناة (الترعة) التى تمر بالأراضى الزراعية وأن نتجه بخط مستقيم نحو الصحراء ، وسارت الأمور فى البداية سيرا طيبا ، لكن قوة الخيول بدأت تتلاشى فراحت تسحب الحافلات الثقيلة ببطء كان يزداد بالتدريج فى الرمال العميقة ، وبهذه الطريقة كان يمكن أن نستغرق عدة ساعات للوصول للقاهرة لذا فقد عدنا للأرض الصلبة (الزراعية) مرة أخرى بمساعدة حملة المشاعل .

وتجاوزنا حديقة قلعة(؟) kub Castle وكانت الخفافيش تحلق بين النخيل ذات الحفيف وأشجار الجميز الغليظة وكانت

الروائح العطرية تنبعث من بساتين البرتقال • انها عطور مزارع الشرق المسكرة • وامتلأت السماء بنجوم لا حصر لها، وأنعش الهواء الدافيء الناعم وجوه الأوربيين البائسين • لقد كانت ليلة أفريقية حقيقية فى الغاية من الروعة ، اذ ينبغى على المرء أن يدرك السحر اللذيذ لهذه البلاد السعيدة ليفهم جاذبيتها التى تفوق الوصف وفتنتها التى لا حدود لها والشوق الشديد لكل من عاش فيها ليعود اليها • ففى هذه البلاد فقط ولا سواها يمكن أن يكون مهد البشرية حيث الشرق المزهر الباسم ، والصيف الواضح غير الكئيب ، لا فى بلاد الشمال الباردة الجرداء العابسة •

كان الطريق جيدا من kub الى القاهرة فوصلنا سريعا لقصر النزهة وكان عشاؤنا جاهزا وكذلك تجهيزات قضاء الليل استعدادا لليوم التالى •

وبدأنا فى صباح اليوم الثانى والعشرين مع البارون ساورما فحملتنا الحافلات عبر الأحياء الأوربية ثم على طوال الموسكى حتى انتهى الطريق الذى يمكن أن تسلكه الحافلات عند آخر منزل ، وبعدها بدأت تظهر الخرائب والقبور القديمة • والمنطقة الواقعة بين القاهرة وسفوح المقطم — وهى منطقة صحراوية صخرية واسعة مليئة بما يمكن تسميته بمدينة المساجد الجنائزية القديمة بالاضافة الى قبور مختلفة الأشكال للمسلمين ، وثمة مقابر شبيهة عند الجانب البعيد للقلعة ، وان كانت مقابر المماليك أقل قيمة بالنسبة للزائر •

ومن بين كثير من المساجد الصغيرة والكبيرة الموجودة بين قبور الخلفاء ، يعتبر جامع قايدباى kait-Bey هو الأبهى عمارة وقد زينت قبته زخارف ثرية •

وفي حرم هذا المسجد يوجد مكعبان حجريان على كل منهما أثر قدم من قدمي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كان مؤسس المسجد قايدباى قد جلبهما ــ كما يقال ــ من مكة (المكرمة) •

ويرى المرء اذا ما تجول راكبا في مدينة القبور هذه ما هو جدير بالنظر ، فأمامنا توجد المنحدرات الصخرية الوقور ، والى اليمين توجد القلعة المشيدة من الصخور وفوقها مئذنتها الجميلة السامقة ، وحولنا قبور مختلفة أشكالها ، وشواهد قبور ومساجد ، وكلها قد تساقطت بعض أجزائها وضربتها رمال الصحراء • وترتفع بينها تلال صغيرات فوقها مبان حجرية عربية فوقها ما يشبه الأبراج ، والجانب المأسوى للصورة وجود علامات كثيرة تشير الى أن الكلاب والذئاب والضباع وحيوانات ابن آوى قد حفرت قبور الموتى المسلمين ليلا •

ووصلنا سريعا الى المحجر The Stone Quarries ، بجوانبه الشاهق ارتفاعها وكتله الحجرية الضخمة المتناثرة هنا وهناك • وتركنا حميرنا هنا وتسلقنا بشق الأنفس صاعدين ممرا ضيقا بين الأحجار من ناحية وجرف (منحدر) الجبل من ناحية أخرى حتى وصلنا لمنتصف ارتفاع الجبل • ان الرياضى المحترف يحتاج لتفكير عميق لتسلق بعض المواضع فالصخور الملساء سواء الرمادية التى تعتريها صفرة أو البنية الداكنة ، يحتاج تسلقها لحذق خاص ومهارة فائقة والا تعرض متسلقها لكارثة •

ووجدنا عربيا الى جوار حمار ميت ، فى شعب ضيق غير بعيد عن أحد حواف الجبل التى تشبه القلعة •

وهنا شيد البارون ساورما جدارا (سورا) أمام مدخل مغارة ، وتسلقت أنا وعمى وخادم ساورما وعثمان النوبى

الحاذق والمشرف على الصيد التابع لي ــ تسلقنا جميعا على أربع (على اليدين والقدمين) فوق حافة ضيقة وهبطنا لنكون في مكمن غير مريح ولم يعتد أحد الكمون فيه ، وعاد الباروني والعرب الى المحجر ليتابعوا القنص عن بعد ، واتضح ان المسافة مناسبة فطلقة يسيرة نطلقها تجاه قاع الشعب كافية لاصابة هدفها . ان نظرتنا للموقع من مكان مرتفع تؤكد ذلك .

لقد أصبح الجو ملبدا وتساقط بعض المطر ، وهذا أمر نادر الحدوث فالناس يقولون ان الأمطار لا تسقط في القاهرة الا سبع مرات في السنة ، لسوء الحظ فقد كانت احدى هذه المرات السبع من نصيبنا مع اننا كنا نريد جوا صحوا .

ومضى وقت طويل ولم يظهر ما نقتنصه ، ووصلت الى آذاننا أصوات الأبواق والصرخات القادمة من القلعة ، وكان الهواء ثقيلا ، والمكان ضيقا ، فلم نكن قادرين على الحركة ، مما جعلنا لا نحس بالارتياح . وأخيرا هبط زوج من الغربان وبعض الحدءات الباحثات عن فرائس لافطارها ، كما رأينا نسرا من نسور الجيف برأسه الأصلع .

ودفعني الملل وطول الانتظار الى أن أنصح عمي ــ الذي لم يكن قد أطلق النار أبدا على أي من هذه النسور ــ أن يطلق النار ، ولم يكن قولي بأسرع من فعله ، وهبطت سريعا الى البقعة بمجرد انقشاع الدخان وتوسلت الى عمي أن ينتظر فترة . فالشمس حامية وهبطت بالغنيمة المتواضعة الى المحجر . وعند وصولي وجدت أنا والبارون ساورما موقعا مناسبا للمراقبة . وتوالت الأحداث بينما كنت أمسك بتلسكوبي .

لقد ظهرت نسور ضخمة في البداية من النوع المعروف باسم Vultur fulvus ، وحدث هذا في غضون ربع

ساعة من وقوفنا فى موقعنا الجديد • لقد دارت هذه النسور حول قمة الجبل وهى تضرب الهواء بأجنحتها ضربا رفيقا ، لقد ظهرت هـذه النسور الواحـد فى اثر الآخـر وسرعان ما تجمع منها ستون •

لقد أزفت اللحظة المثيرة عندما كف النسر الأول جناحيه عن التحليق وهبط بين الصخور ، فحـذت النسـور الأخرى حذوه ، فهبطوا ككتل الحجارة نسرا اثر نسر ، وبمجرد أن هبط النسر الأخير رأينا دخانا يرتفع من أعلى الموقع فتشتت شمل مجموعة النسور اثر الطلقة الأولى •

واستطعت رؤية نسر أصيب بجرح بالغ يتدحرج بين الصخور بمساعدة تلسـكوبى ، كمـا رأيت عثمـان يسرع للامساك به بينما لم تغادر النسورالأخرى الموقع وانما راحت تدور حوله ، وجريت بأقصى ما أستطيع لأصعد الممر الصخرى الى المكمن • لقد استطاع الدوق الكبير قتـل خمسـة نسور هائلة بطلقة واحدة فى لحظة واحدة بينما كانت رءوسـها جميعا تمتد لنهش جيفة • ووضعت هذه الغنيمة العظيمة فى مكان بين الصخور •

ويمكنك أن تتصور مدى الرائحة النتنة المنبعثة من هذا المكان الضيق ، وظلت النسور تحلق طوال نصف ساعة أخرى حول حافة المنحدر الصخرى ، لكنها لم تتمكن من الانقضاض على أية جيفة ، وبعد ذلك انسلت جميعا نسرا اثر نسر عائدة الى الامتداد الجبلى • ونحن أيضا اتخذنا طريقنا هابطين ، وسبقنا عثمان وكان مسـاعد القنص التـابع لى ينتظر فى الوادى ، ووضع عبء العمل الشاق والمرهق على كاهلى الدوق الكبير ، فحملنا غنيمتنا الثقيلة والثمينة على ظهورنا وهبطنا الممر شديد الانحدار •

ولما وصلنا للمحجر كان الوقت عصرا واستغرقت عودة الآخرين التابعين لمجموعتنا وقتا طويلا فقد كانوا قد وضعوا ما اصطادوه بالقرب من مسجد مخرب وبعض المقابر على هضبة جبل المقطم ، وكان ما اقتنصوه عبارة عن أحد نسور الجيف وبعض الحدءات • ولم يكن من نصيبهم اصطياد نسر كبير •

وركبنا عائدين خلال مقابر الخلفاء(؟) الى أقرب المساكن للمدينة حيث كانت حافلاتنا فى انتظارنا ، واتجاهنا فى خط مباشر للموسكى أخذ وقتا طويلا لأنه فى ساعات المساء الأولى تزدحم الطرقات بالغادين والرائحين فى هذه الشوارع ذات الطابع العربى الخالص •

وعند أقصى طرف الحى الشرقى عند بداية حى الموسكى بالقرب من المدينة الأوربية يوجد معمل بارفيس Parvis المشهور وهو من مواطنى تريست Trieste • هذا الرجل الماهر مهارة غير معتادة ينتج كل المصنوعات الشرقية المناسبة بشكل خاص للغرف • وقدمت لى الجالية النمساوية المجرية هنا كل الأدوات الخاصة بغرفة التدخين ذات الطابع الشرقى الصميم • لذا فقد توقفنا فى طريق عودتنا عند بارفيس Parvis لنطالع هذه الأدوات الجذابة المتكاملة • وبعد فترة يسيرة عدنا الى قصر النزهة فتناولنا عشاءنا وخلدنا للراحة مبكرا •

وكان علينا أن نغادر القاهرة فى اليوم التالى لنذهب كفريق صيد الى مديرية الفيوم ، فاذا ما أتممنا رحلتنا اليها صعدنا فى النيل فى رحلة للصعيد •

★★★

الفصل الثالث

رحلة الى (ابو سكر) فى الفيوم ـ الحمام ـ الخط الحديدى ـ الخط الحديدى الفرعى ـ البربر ـ قصب السكر ـ ليس فى الشرق عمل يتم بيسر وسهولة ـ البدو ـ العمال الزراعيون ـ الطيور ـ الذئاب ـ الحياة الحيوانية البرية عامة ـ بحيرة قارون ـ حصيلة الصيد ـ رمال الصحراء ـ وصف الفيوم ـ كثرة الذئاب ـ ركوب الباخرة النيلية للتوجه الى أسيوط ـ رسوم الفنان المصاحب ـ تعليقات المترجم •

لقد تجمعت المجموعة المسافرة فى بكور صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر فبراير فى محطة القطار المتجه للجنوب (خط الصعيد) الذى لا يؤدى الى أسيوط فحسب وانما يخرج منه خط فرعى يؤدى الى مديرية الفيوم •

وقد تلطف الهر زمرمان Herr Zimmerman مرة أخرى فاستقل القطار معنا ليصحبنا الى المحطة الأخيرة (أبو سكر) أما الأمير تاكسيس Taxis فكان قد سافر قبلنا بيوم ومعه المترجم الى بركة قارون Birket el-Karun (بحيرة قارون) لينصب خيامنا ويجرى الاستعدادات اللازمة لأيام الصيد •

لقد كان مسار الخط الحديدى فى البداية بجوار شريط ضيق من الأرض المزروعة ، التى تمتد بين الشاطىء الغربى

للنيل والصحراء • ان الطبيعـة الكثيفـة للزراعة المصرية تتجلى بوضوح هنـا فثمة زروع كثيرة فى مسـاحة ضيقة • وتعاقبت قرى الفلاحين البسيطة وغابات النخيل ، ويلاحظ أن القرى هنا أكبر من قرى مصر الدنيـا (الدلتا) • وقد استرعى نظرنا أبراج الحمام المبنية على الطراز العربى ، ويقدم المصريون للحمام هذا المأوى كما يقدمون له الحماية لا لشىء الا لما ينتجه هـذا الحمـام من سماد طبيعى (زبل الحمام) وأحيانا يستفيدون من بيضه وزغبه (ريشه) وليس للحمام المصرى طبيعة داجنة بأية حال فهو حمام جبلى قاس بالفعـل سـواء من حيث الوانه أو أحجـامه كمـا انه غـير ذلول أبدا •

وغالبا ما كان الخط الحديدى يقترب من النيل ، وهو دائما ــ أى الخط الحديدى ــ يقع على الضفة الغربية للنهر (الى اليسـار منا).(١) أما الى الشرق فالجبـال الصحراوية تقترب من المجرى ، أما الى الغرب فتقع الصحراء الليبيـة (صحراء مصر الغربيـة) التى تبـدو كأمواج من الرمال المتحركة لكنها مسطحة بشكل عام •

وتجاوز القطار الأهرامات ، وقد رأينـاها بوضـوح ، وفى البـداية ظهـرت رءوس الجيزة الرمادية (رءوس الأهرامات) أكثر الآثار المصرية مدعاة للفخر ، ثم تلا ذلك ظهور أعضاء الأسرة الأصغر ممثلة فى أهرام سقارة • لقد تعودنا نحن الأوربيين أن نرى نخلة واحدة ، أو نخلة تقف منعزلة بمفردها فى دفيئة (مكان لانبات الأشجار التى تحتاج لحرارة).(٢) أو على الساحل الأوربى الجنوبى . اما هنا فان غابات النخيل بحفيفها وكثافتها تعد رمزا صادقا لأفريقيـا المشمسة •

وفى الساعة العاشرة صباحا دار قطارنا تاركا الخط الحديدى الرئيسى الذى يتبع مجرى النيل حتى أسيوط ، لينتقل الى الخط الحديدى الفرعى المتجه غربا بين صحراء جدباء قاحلة • ان الرحلة فى هذه المنطقة الجرداء رائعة جدا فى تفردها واثارتها للدهشة •

لقد انتقلنا فى لحظات تاركين النيل العامر والخضرة اليانعة المثمرة التى أشبعت ريا لا مثيل له الا فى هذه القارة السوداء (المظلمة) Dark Continent الى صحراء ساكنة لا حياة فيها •

ويخطىء الذين يتصورون الصحراء مكانا مسطحا مستويا ككثير من مستنقعات الأدغال المجرية أو سبخات شمال المانيا فللصحراء منظر الأمواج كما أن بها مناظر متباينة ، وغالبا ما يكون فيها تمعجات كثيرة كما تقطعها الوديان وتجللها التلال ، وغالبا ما تكون هذه التلال فرادى لا تشكل سلاسل ، ولا أثر لحياة نباتية على الاطلاق وليس بها من الحياة الحيوانية الا الشىء القليل عند أطرافها القصية حيث استطاعت بعض الحيوانات التكيف مع ظروف الجفاف •

ومع هذا فالصحراء تبدو للرحالة جليلة جميلة ، انها صورة للراحة كما أنها ثرية بألوانها ، لقد وهجتها شمس أفريقيا المحرقة • أما تباين الألوان فيرجع لاختلاف أنواع الصخور التى تتخذ فى الغابات لونا أصفر شاحبا ثم تراها أحيانا داكنة ، وأحيانا أخرى تراها منقطة بسواد على أرضية بيضاء ، كما أن هناك صخورا مخططة • ان اختلاف الصخور يعطى المشاهد خليطا سحريا من الألوان •

ولم نر أى مظهر من مظاهر الحياة ونحن ننظر من القطار الذى يقطع هذه الفيافى الجرداء • الا أننا شاهدنا

بعض البدو فى عباءات بيض (برانس burnous) يحملــون بنــادق طــويلة قادمين من وراء التــل • انهم بربر خلص يقطنون هذا الجزء من الصحراء (٣) • انهم أبنــاء الأرض الأحرار انهم أسعد الرجال لا يخضعون لحكم Uncontrolled شــجعان ، ســلابون نهــابون ، متمردون الى أقصى درجة • وتتباين القبائل المختلفة تباينا كبيرا فى مظهرها وازيائهــا بل وفى صفاتها المميزة وفى أســلحتها ، لــكن مصر جذبت بسبب جمالها القبائل الصحراوية القادمة مما وراء مراكش Morocco ، والقادمة من آسيا أيضا ، فجنوب غرب آسيا يقطنه أيضا العــرب الســاميون Semitic Arabs ، وعاودت الخضرة فصافحت أعيننا مرة أخرى فى حوالى منتصف النهار ، فظهرت الزروع كبقعة خضراء وسط الرمال الصفراء • انها واحة الفيوم الكبيرة • انهــا ــ بكل وضوح ــ أرض خصبة قد أحسن أهلها زراعتهــا ، تتخذ شــكل الدائرة وتحيطهــا الصحراء من كل الجهات (٤) • وتشكل بحيرة قارون الكبيرة حدها الغربى ، كما أنها ــ أى البحيرة ــ تفصل بين الأرض الزراعية من ناحية والصحراء من ناحية أخرى • لقد مررنا خلال جزء يسير من هذه الواحة الخصبة كان مزروعا بقصب السكر ووصلنا الى محطة (أبو سكر) Abuskar • انها محطة مخربة لا تستحق أن تكون محطة حتى فى وسط أفريقيــا ، وتشكل مبانى المحطة مع مصنع السكر الموجود هنا مستوطنة (قرية) صغيرة •

ولا يذهب بك الخيال الى الظن بأن مصنع السكر الذى نشير اليه هنا يعد مصنعا كبيرا على النمط الأوربى كمصانع السكر التى نراها فى بوهيميا Bohemia • ان مصــنع الفيوم هذا مجرد مبنى بسيط يعتريه الاهمال الى حد ما ، لكنه يستفيد من قربه من مزارع القصب التى تنتج كميــات كبيرة ، ولا يشير لكونه مصنعا الا بعض المداخن المنخفضة •

وتناولنــا طعــام الافطار بسرعة فى غــرفة الانتظار بالمحطة • لقد كانت بدائية بل دون البدائية ، ثم أسرعنــا املا فى ان تكون قافلتنا جاهزة ، فليس فى الشرق عمل سهل فكل شخص يضغط طلبا للخدمات ، ويضغط (يحث) عــلى حصانه وحماره بكل ما يمتلكه من عنف ، وكل شخص يدفع الآخر لينحيه جانبا والكل يصرخ والكل يومىء ، ويضطر الغريب البائس فى خاتمة المطاف لالقاء نفســه بين ذراعى أول قادم (٥) • فبمعونة بعض العساكر وبالاستعانة بعصينا الغليظة التى تستحق الشكر استطعنا أن نحول الفوضى وعدم الوضوح الى أمر قابل للتنفيذ •

وامتطى كل واحد منا حصانا وكذلك خدمنا ، وأكثر من هذا فقد كان علينا أن نرتبط بحمالين ليحملوا كلابنا من نــوع دشــهند dachshunds ، وهــو أمر لا مفر منه فى هذه المنطقة ، وقسمنا الكلاب لمجموعات منتظمــة ، فأصــبح فى حوزة البارون ساورما عشرة من هذه الحيوانات الشــجاعة القوية ، أما نحن فكان معنا أربعة منها • وببعض المشــقة أمكن ابعاد الناس المزدحمين حولنا حبا فى الاستطلاع ، وتم منعهم من متابعتنا •

وقد ركب البدو القناصون الذين اضطررنا لاصطحابهم وجعلوا خيولهم تسبقنا • انهم من قبيلة صغيرة نائية المضارب يلبسون ثيابا بيضاء ، وان شئت الصدق ـ فان برانسهم قد تحولت لفرط قذارتها الى اللون الأصفر وكان معهم بنادق طويلة وخناجر bent knives وأكياس لحفظ التوباكو ، وكل هذه الأشياء بالاضافة لأكياس البارود (أجربة البارود) والرصاص ، قد ربطوها باحكام حول خواصرهم ، وكانت سيقانهم الطويلة عارية كما كانوا يلبسون أخفافا (جمع خفه

بضم الخاء) فى أقدامهم - وهم هنا - كما هم فى كل مكان بشمال افريقيا - ليسوا أكثر من متسولين بائسين • فمظهرهم الخارجي غير طيب وملابسهم رثة ، بل وهم لا يغطون رءوسهم بعمائم وانما بطواق ضيقة بنية اللوان كطواقى الفلاحين ، بل وحتى الشباب منهم كانوا حاسرى الرءوس •

ان طباتع هؤلاء البدو منيرة للاهتمام • انهم بربر اصلاء بن الصحراء الليبية ، وألوانهم داكنة ومظهرهم الخارجي يوحى بصلابة اشد مما عليه سكان النيل الادنى (الدلتا) وغالبهم طوال القامة ويتسمون بالنحول ، وان كانت ملامحهم أقل نبلا وجمالا من ملامح القبائل البدوية فى الشمال • فالدماء الزنجية واضحة فيهم ، وبعضهم أسود تماما وله شعر مفلفل قد يحسبهم المرء من البربر Moors (؟) • وقد تم استرقاقهم (سرقتهم) عندما كانوا أطفالا من موطنهم فى داخل أفريقيا ثم حصلوا على حريتهم من القبيلة التى نشأوا فيها (تم عتقهم) ، لكنهم ظلوا محتفظين بلغة البدو وزيهم وعاداتهم ونسوا أصولهم تماما ، بل لقد نسوا حتى البلاد التى قدموا منها • وقد رأيت لهم شبيها فى كل القبائل التى أتيحت لى فرصة معرفتها سواء فى أفريقيا أو آسيا (٦) •

وحتى العمال الزراعيون حول (أبو سكر) لفتوا نظرى ، من حيث كونهم من نوع مختلف عن الفلاحين الذين يسكنون وادى النيل الأدنى فهم أضخم حجما وأشد دكنة وأكثر شبها بالبدو الموجودين فى الواحة (الفيوم) التى تطوقها الصحراء ، والذين يتصلون بهم • لذا - فمن الواضح - أن هؤلاء العمال الزراعيين يمثلون جنسا مخلطا • ويلاحظ المرء بوضوح أيضا وجود عدد كبير من البربر بينهم •

وسرعان ما بدأنا الصيد ، ففى حديقة مجاورة للمصنع الآنف ذكره وجدنا طائر الوروار (٧) bee-eater

(الوروار أو الخضيراء أو الخضار) وهو طائر أزرق الوجه ، ولونه أخضر وان كان له خطوط طويلة زرقاء على جناحيه وراسه ٠

ويرجع أصل هذا الطائر الى المناطق الداخلية فى افريقيا لأنه منتشر فى صعيد مصر ، ولا يصل فى تحليقه للقاهرة التى تبدو فى موقع شمالى لا يتلاءم معه ٠ وكان حول الحقل طيور ابو طيط (٨) (البيبويت) وهى طيور ضخمة الحجم وجذابة كما أنها طيور أصيلة ٠ كما كانت هناك أسراب من البلشون (طيور مالك الحزين) ، وهنا ــ كما فى أى مكان آخر بأفريقيا ــ تتجمع الحياة الحيوانية فى المناطق الخصبة والتى يتوفر فيها الماء ٠ لقد كانت البشائر تشير الى أننا سنستمتع بأيام صيد طيبة ٠

وسرعان ما سمعت أصوات طلقاتنا وتساقطت قنائصنا من الطيور التى أحضرها العرب المصاحبون لنا من الحقول المبتلة ٠

واستمرت القافلة فى طريقها بخيولها وخدمها وأمتعتها، الا أننا جميعا تركنا ما كنا مشغولين به عندما دعانا البارون ساورما اليه ، فقد كان قد اكتشف حقل قصب سكر كبيرا واعتزم عبوره بصحبة الكلاب ٠ وكانت المشكلة الوحيدة التى واجهتنا هى التخلص من العمال الكثيرين حتى لا تصيب طلقاتنا أحدا منهم ٠ وكان على كل السادة أن يتخذوا مواقعهم حول الحقل ، واقترح ساورما أن أدخل الحقل ومعى مسئول الصيد My huntsman وقطيع من أربعة عشر كلبا ٠ لقد كان القصب فى ارتفاع قامة الرجل ٠ وقبل أن نتخذ لنا أماكن سمعنا الكلاب تنبح نباحا مرحا وأعقب ذلك صوت طلقتين ٠ وجرى واحد من جماعتنا مسرعا للأمام ، آملا أن يكون أول من يصل الى طرف الحقل البعيد ، وبينما كان

لا يزال يجرى حتى احضرت الكلاب ذئبا كبيرا كان على بعد خطوات منه فى حقل مكشوف • ولسوء الحظ فقد انحشرت رصاصة فى بندقية كانت مصوبة نحو طيور الزقزاق (٩) والبلشون (مالك الحزين) ، وأسرع ايسجرم Isegrimm وترك الحقل المكشوف الى أقرب ساتر •

وفى وقت قصير كان نباح الكلاب يدوى فى كل ارجاء حقل قصب السكر ، ودوت الطلقات ، لقد اطلق اثنان من مسئولى الصيد طلقتين صوب الذئاب دون جدوى فقد كانت هذه الحيوانات حذرة فهى لا تكاد تغادر القصب حتى ترتد عائدة اليه وتختفى داخله ، فأطلقنا كثيرا من الطلقات تجاه هذه الذئاب وهى تندفع داخل القصب ، وسرعان ما دلنا نباح الكلاب ، وبعض شرائط من دم على أن الطلقات قد أصابت هدفا فغادر عدد من الرجال مواقعهم فى حماسة وراحوا يطاردون القتائص ، وان كان من الصعب أن يرى المرء لمسافة خطوتين بين أعواد القصب الكثيفة ، فذهبت ــ لذلك ــ جهودهم سدى •

وخلال هذه الرياضة الوحشية والتى لم تكن منظمة على نحو ما ، لم أطلق طلقة واحدة • وبعد نصف ساعة من الانتظار كان معظم الرجال قد غادروا بالفعل مواقعهم ليكونوا بالقرب من الكلاب النابحة ، اكتشفت مدقا (طريقا ضيقا) بين مزرعة القصب •

وأسرعت على طول هذا المدق (١٠) (الطريق الضيق فى حقل القصب) حيث كانت هناك قناة صغيرة (مجرى) للرى وأتيح لى ممر لا يزيد عرضه عن ياردة ، ووجدت هنا مكانا يسمح لى باطلاق النار فوقفت منتظرا تقدم الطرائد ، وتقدمت الكلاب ببطء لأن الذئب الجريح قد استدار وهو يعوى فى اثرها ، ولما اقترب الذئب منعتنى الكلاب من اطلاق النار خوفا من اصابتها • لقد سمعت بوضوح زمجرة الذئب

مختلطة بنباح الكلاب . وفى غضون لحظات توقف صوت الصرخة والزمجرة والنباح ، رغم السكون . لقد أمسكت الكلاب بالذئب باصرار ، ولا يستطيع المرء أن يقرر ما اذا كان هو الذئب الجريح . وبعد لحظات أخرى سمعت نباح مجموعة كلاب أخرى قادما من الجانب الآخر المقابل للحقل وهذا يعنى أن عملية صيد تجرى من جديد . واندفع الصائدون مرة أخرى داخل الحقل فى اتجاهى، وكان يمكننى أن أستنتج ان الكلاب كانت فى اثر ذئب جريح ، ولما أصبحت الكلاب على بعد مائة خطوة منى كان يمكننى أن أستنتج أنها فى وضع حرج ، وبينما كنت مستغرقا فى هذا التفكير سمعت — على حين غرة — حفيفا خفيفا بالقرب منى ، فالتفت فوجدت ذئبا غير جريح يتسلل على طول الممر الضيق (المدق)، فأطلقت عليه النار فورا وسمعت أذناى بصوت سقوطه وأسرعت الى البقعة التى هوى بها ، فرأيته مكسور الظهر يزحف فلا هو جالس ولا هو ممدد ، وقد أظهر أنيابه ، وسمعت بعض الكلاب صوت الطلقة فأتت وبدأت الآن معركة حياة أو موت لكننى وضعت حدا لهذا بطلقة فاصلة .

لكن ، أذئب واحد يكفى كل فريق الصيد ؟ لقد أطلقنا النار على أربعة ذئاب أخرى ، ولم نستطع أن نقطع وقتا طويلا فى متابعتها فقد أقبلت الكلاب ، كلبا فى اثر كلب الى حواف الحقل . لقد بذلت هذه الكلاب الشجاعة جهودا نشطة رغم الشمس الحارقة .

لقد عدنا جميعا الآن الى خيولنا ونحن فى حالة رضى ؟ سواء قل هذا الرضا أم كثر . لقد ناقشنا بعجب ثروة المنطقة من الحيوانات البرية والأثر المضحك لصيدها فى حقول مزروعة ، وكأنها طيور الحجل (١١) .

وتحركت قافلتنا مرة أخرى فى طرق متعرجة وموحلة فى مواضع كثيرة ، وكانت الطرق تجرى بين حقول كثيفة

زراعتها • وتركت الشمس تأثيرها القوى علينا فأحرقت جلودنا ، فهذا داب شمس افريقيا • حتى الفتى مرجان Fata Morgana آثرت فيه الحرارة ، وحتى البربرى الذى كان يسير بجانب حصانى راح يلعن الحرارة وهو يمطر عرقا • لقد كان هذا البربرى مخلوقا متشردا فالدماء الزنجية تجرى فى عروقه ، فوجهه أسود مغطى بالندب كما أن لحيته المدببة القاسية ، وملامحه الدقيقة تنم عن دماء عربية • وقد سمحت له أن يحمل بندقيتى فابتسم ابتسامة الرضى فظهرت أسنانه البيضاء وراح يتفحص السلاح الأجنبى بعينى خبير •

ونظرنا لطريقنا من البعد بين الحقول الباسمة والأدغال ذوات الخضرة الداكنة التى تنعكس صورتها على صفحة بحيرة قارون وكأنها صورة على صفحة مرآة صافية ، وخلفها خط برتقالى طويل من الصحراء الكبرى •

ووقف عقاب (صقر حوام) (١٢) ـ وهو طائر افريقى ـ فوق رابية منخفضة غير بعيدة عن خط سيرنا ، فترجلت من فوق حصانى وتسللت بالقرب منه لكننى فشلت فى اصابته بطلقتين واهنتين ، ولم تزده هاتان الطلقتان الا أن تحرك ليزداد قربا منى ، فأطلقت مرة أخرى دون أن أصيبه وما زادته هذه الطلقة الثالثة الا أن جعلته يرفرف بجناحيه وهو ثابت فى مكانه ، فما كان منى الا أن عاجلته برابعة لم تكن معبأة جيدا ، فهوى •

وبعد هذه الجولة البسيطة وصلنا لقرية بائسة ضربها الفقر • اذ كانت عبارة عن بيوت طينية معظمها مهدم ، فمنظر القرية لا يتناسب أبدا مع البهاء المحيط بها ممثلا فى أشجار النخيل السامقة وأشجار الجميز الكثيرة • وخرج أهل القرية بأثوابهم الممزقة ومعهم الأطفال عراة تماما

ــ ليشاهدونا • واستدار الطريق عند القرية لنجد أنفسنا على شاطىء البحيرة •

فأنزلنا حمولة خيولنا وحميرنا وترجلنا وركبنا القوارب، التى كانت هزيلة جديرة بأن تذكرنا بقوارب أجدادنا البدائية وبيوت البحيرات فى مطلع التاريخ ، وكانت مجاديفها بدائية للغاية • انها مجرد صناديق مسطحة مربعة يقوم عليها خمسة أشخاص أو ستة • أما داخل القوارب فكان قذرا مليئا بعظام السمك وقاذورات متنوعة خاصة من السمك المتعفن • لقد كانت الرائحة العفنة شديدة فلم نجد خيرا من التدخين بغير انقطاع ــ وسيلة ليحمينا الى حد ما •

ومن المحتمل ان يكون المصريون القدماء قد استخدموا قوارب على الشاكلة نفسها ، وما كانت قواربهم على أية حال أسوأ من تلك التى يستخدمها اخوانهم هذه الأيام فى بركة قارون •

وانسابت قواربنا فوق سطح البحيرة مع رذاذ الماء الذى تثيره المجاديف البدائية ، ومع الأغانى السوداوية (١٣) • وليست هناك زروع الا على جانب واحد من جوانب هذه البحيرة الجميلة أما الجوانب الأخرى فتحيطها الصحراء • وعلى طول شاطئها يرى المرء شريطا من شجيرات منخفضة ، ويصبح هذا الشريط طورا عريضا (ذا عمق) وطورا ضيقا (بغير عمق) ، وهذا الشريط الدائرى الأخضر يعطى البحيرة طبيعة خاصة • ولا يرى المرء سكانا ــ انه منظر عظيم لكنه ــ بغير شك ــ يدعو للحزن • ويزيد من هذا الشعور هذا الماء المالح العميق • انه لأمر غريب أن يرى السائح هذا البحر الداخلى بعيدا عن المحيط (ليتفضل القارىء بمراجعة الخريطة) يعج بالأسماك وغيرها من الحيوانات البحرية •

ان الصحراء كلها مالحة تماما وكذلك البحيرات الواقعة عند طرفها • وبعد حوالى نصف ساعة من التجـديف راينـا بعض البجع (١٤) يسبح قريبا فتابعناه ولم نستطع اللحاق به فهو سريع العوم • واخيرا وبعد محاولات عديدة حلقت هذه الطيور السمينه بوقار لتبحث عن مكان آخر في البحيرة ، ولم نر غـير ذلك سـوى البط البرى وطيـور الغطـاس (الغواص) وطيور النورس (١٦) (زمج الماء ـ بضم الزاى وتشديد الميم وفتحها) وعدد كبير من نسور النهر (١٧) •

ان الليل يزحف ، فقد غربت الشمس وراء الصحراء مخلفة أعظم الأثر فينا بما متعت به عيوننا من ألوان وضياء ، وعم السكون •

لقد اقتربنا من جزيرة قارون Beziré karun ، حيث كان مخروطها الصخرى Rocky Cone يقف شامخا ، في حاجة الى ريشة فنان يصوره بخلفية تشكلها سماء زرقاء داكنة •

وألقينا مراسينا عند شاطىء الجزيرة الشرقى المسـطح ونصبنا خيامنا على بعد حوالى مائة خطوة من الماء ، وأشعلنا النار ، وانكمش العرب بين الشجيرات ، وحيانا الأمير تاكسس Taxis الذى كان قد سبقنا فوصـل الى هنـا فى الصباح الباكر ومعه قافلة كبيرة •

وتناولنا بعد وصولنا عشاء ممتازا أعده طباخ عربى فى خيمة أعدت لتكون صالة طعام • وكانت الخيام مريحـة تماما ومصنوعة من خامات جيدة ، وكان لكل رجلين خيمـة واحدة مزودة بالأسرة ، بل وحتى المناضد • ويجيد الشرقيون اعداد الوجبات فى الخلاء ، كما يجيدون نصب الخيام بسرعة وبشكل مريح • ولا أحد يباريهم فى ذلك ، فسـعيد هو من يسافر معهم •

وبعد العشاء تجولنا ودخنا ورسمنا خططنا لليوم التالى ، وقبيل العاشرة خيم السكون على المعسكر . وقد تمدد العرب حول المعسكر على الرمال فى الهواء الطلق فبدوا كالأشـــباح بعباءاتهم البيض .

ولم يمر الليل بهدوء كما توقعنا خلال امسيتنا الجميلة فقد هبت عاصفة عاتية فكادت تقتلع الخيام ، فتسلل حسن المترجم من خيمة الى خيمة وراح يثبت اركانهـــا ، وقد تم اصلاح ما افسدته العاصفة بسرعة لحسن الحظ ، وفى الصباح كانت العاصفة قد خمدت .

وتناولنا افطارنا باكرا قبل شروق الشمس ، ورحنـــا نلاحظ أسراب طيور الماء أثناء تجوالنا على شاطىء الجزيرة لاختيار البقع المناسبة لتمركزنا .

وما كدنا نغادر الخيـــام حتى رأينـــا أسرابا من الغـــاق وأنواع مختلفة من البط البرى والبلشون (مالك الحـــزين) والبجع . وبدا منظـــر البجع بالذات يبعث عـــــلى السرور ، فمنقار البجعة الطويل يتدلى بشكل مضحك ويبدو جناحاها الهائلان قادرين على حمل جسمها السمين الضخم بصعوبة فى الهواء . ومع هذا فالبجعة من الطيور التى تعتبر قادرة عـــلى الطيران لمســـافات طـــويلة . وقد ذهبت ومعى الدوق الكبير The Grand Duke الى ســـاحل منبســـط ، بالقرب من الخيـــام واختبأنا بقدر ما استطعنا بين شجيرات الصفصاف .

ومر علينا فى مكمننا هـــذا كل أنـــواع الطيور فأطلقنا وكانت النتائج مثمرة فلم نكن نمكث الا قليلا لنطلق طلقات أخرى . لقد كانت طلقاتنا متتابعة . وكان من بين صيدنا طير النورس (زمج الماء) وهو نموذج مشوه لطيور الجليـــد عندنا . ومما يؤسف له أننا لم نصطد بجعا ، فلم تمر علينا واحدة فى مكمننا هذا .

وسمعنا الطلقات تدوى من كل جانب فتوقعنا صيدا وفيرا • وفي اليوم الاول كانت الطيور تحوم حولنا ، اما في اليوم الثالث فكانت الطيور تتحاشى الصخرة الخطرة لتدور على البعد •

وفى غضون ساعة كانت معركتنا الصباحية مع الطيور قد انتهت وعدنا لخيامنا • وعلى أية حال فقد اصطدت في غضون دقائق قليلة نسرين من نوع نسور النهر كانا يحلقان فوق رأسى •

وأقبل الرجال ، واحدا في اثر الآخر • وكان بوسنجر Pausinger هو أوفرنا صيدا ، فقد اختبأ خلف شجيرة غير عالية بالقرب من الخيام فلما اقتربت بجعة بعد انتظار يسير ودنت فى طيرانها من الأرض أطلق عليها طلقة محظوظة فهوت •

وقبل أن أسجل لكم مزيدا من أحداث هذا اليوم أريد أن أصف الجزيرة نفسها ، فالجزء الشرقى منها ــ مثله مثل الجزء الجنوبى الشرقى ــ مسطح وتغطيه الشجيرات ، أما بقية أجزاء الجزيرة فصخرى منحدر فيما عدا الجزء الشمالى فيه شريط صغير مسطح ، وهو (لاجون) سبخ متصل بمياه البحيرة • وبين الساحل والصخرة الوسطى مسافة مسطحة قلما تزيد عن ثلاثمائة خطوة وهى مغطاة بالرمال الناعمة •

وفى الجانب الشمالى للجزيرة يمتلىء هذا السهل الضيق بالصخور الضخمة المتحطمة من الصخرة الوسطى الضخمة • وخلا بعض الشجيرات على الساحل فكل الجزيرة قاحل فلا وجود حتى للأعشاب • وتنحر المياه سواحل الجزيرة المتآكلة ولن يمضى وقت طويل قبل أن تتلاشى الجزيرة ولا يبقى منها سوى هذه الصخرة الوسطى الصامدة •

وقد غادر الدوق الكبير The Grand Duke والأمير تاكسس Taxis المعسكر بعد ان مكثا معنا قليلا ، وسرعان ما تبعتهم ومعي البارون ساورما • لقد كانت خطتنا ان نقسم أنفسنا الى مجموعتين مع كل مجموعة عدد من كلاب الداشهند وأن يبدأ كل فريق من ناحية ، ثم نتقدم حتى الصخرة الوسطى •

وبين الصخرتين الأوليين ارتفع طائران من طيور الزقزاق ، فأطلقت النار على أحدهما ، فقاد عثمان البارع الكلاب وأطلقها بين الصخور • لقد بدأنا الآن الصيد المشوق والجاد • لقد كان على الواحد منا أن يقفز فوق صخور ناعمة وأكوام من حجارة قاسية ليتابع الكلاب •

وأمام شق من الشقوق التى لا تحصى نبحت الكلاب واختفت تبحث بين الأحجار ، وفى غضون ثوان قليلة ظهر حيوان الوشق Lynex (١٨) مغادرا جحره وهو يقفز قفزات واسعة ، فوقفت فوق صخرة خمنت أنه لابد أن يمر أدنى منها ، وتم ما أردت فقد سقط بفعل الطلقة الأولى ولما عاجل القيام عاجلته بالطلقة الثانية فخر • لقد كان حيوانا قويا جدا ذا لون رمادى له قناذع من شعر على أذنيه • انه وشق الصحراء الأفريقية الحقيقى • انه أضخم وأقوى من نظيره الأوربى •

وفى هذه الأثناء كان الدوق الكبير يبحث عن المنحدر المقابل للجبل (الصخرة الوسطى) ومعه الكلاب فرأى وشقين (بفتح الواو والقاف) لكنهما مرا سريعا فلم يستطع اطلاق النار عليهما ، وتقابلت معه فى المكان المتفق عليه وسرنا معا مصحوبين بالكلاب ، وسرعان ما سمعنا صوت الكلاب المرح (النباح الدال على استدلالها على طرائد) فأسرعنا للأمام ولسوء الحظ ، فان عمى ــ وقد كان عليه الدور لاطلاق

النار ـــ لم يتمكن من السير سريعا فوق الصخور فغادر الوشق جحره دون أن يلحقه أذى واختفى بسرعة بين الصـــخور ، وأسرعت الكلاب تلاحقه بقدر ما تسعفها أرجلها القصـــيرة ويقدر ما يسمح به انحدار الصخور • وفى غضون دقائق قليلة توقفت عند مدخل جحر تحت صخرة كبيرة • وكان فى الجانب الآخر للصخرة مدخل آخر أوسع ، فحثثنا الكلاب على الدخول فاندفع بعضها فى الجحر المظلم ، فخـــرج الوشـــق ليقع فريسة لبنادقنا ، واختلطت دمدمة الوشق بعواء الكلاب التى عضها • لقد كان عواء حزينا وتوالت الطلقات الجديدة فقد كان الرجال يمارسون عملهم (الصيد) بشجاعة •

ووقفنا زهاء ساعة بجوار الجحر دون أن نلحظ شـــيئا جديدا ، وكان علينا الأن ان نحث الكلاب على الخروج لنخلى الطريق للوشق ، وأخيرا خرجت الكلاب وقد اعتلاها التراب وبدا عليها الارهاق ، ولم يبق فى الجحر الا كلبان كان من الواضح أنهما أكثر الكلاب دأبا واصرارا •

وأخـــيرا اكتشـــفنا شقا يمكننا من خـــلاله ان نســـمع ـــ بوضوح ـــ نباح الكلاب، فوسعناه قدر ما نستطيع واستطعت أن أسبر غور داخله بقضيب ، وعندما سحبت القضيب كان على طرفه بعض من شـــعر الوشق الرمادى ، فنظرت بحـــذر داخل الشق فرأيت عيونه الخضراء (عيون الوشق) لامعـــة مفعمة حيوية ، فدفعت بالقضيب بأقصى قوتى نحو الحيوان فأحسست للحظات أنه قد تراجع • ان عملية القنص تجرى الآن تحت الأرض ، فالمعركة دائرة بين الـــكلاب والوشـــق الهارب •

وما هى الا لحظات أخرى حتى خرج الوشـــق من الجحر بقفزات طويلة من الطرف (المخرج) الذى يقف عنده الدوق الكبير ، فعاجله بطلقة ، فولى الحيوان العميق جرحه مذهولا

يسحب نفسه حتى اختبأ تحت صخرة كبيرة . ولحسن الحظ فقد لاحقته الكلاب الشجاعة فى مخبئه ونجح الأمير تاكسس ـ بعد أن زحف فوق الصخرة ـ فى أن يوجه له طعنة بسكينه . وهكذا تمددت أمامنا طريدتنا ، لقد كانت أنثى جميلة لكنها ضعيفة ولم تكن ضخمة فى حجمها أو قوية فى بنيتها ، كالوشق الذى اقتنصته .

وبعد هذا الانتصار كففنا عن البحث وعدنا للمعسكر ومعنا الكلاب المنهكة التى أصيبت بجروح بعضها اصابته شديدة ، وبعضها اصابته سطحية .

وقبل الظهر اصبح المناخ سيئا فغطت سحب رمادية غير داكنة كل السماء وتساقط مطر خفيف متقطع ، وهذا أمر نادر الحدوث فى هذه المناطق ، واشتدت رياح الشمال فجعلت الجو باردا برودة تتناقض بشكل اضح مع الحرارة اللاهبة فى اليوم السابق . وارتفع الموج فى البحيرة وأعلن مسئولو القوارب استحالة مغادرة الجزيرة فى هذا الجو .

لقد أصبحنا هنا مثل روبنزون كروز معزولين عن العالم فى هذه الجزيرة الصغيرة . وفى المعسكر راح فريق الصيد يعرضون صيدهم فعلقوا على حبال الخيام وشقين وجلد الذئب الذى تم اصطياده بالأمس والبجعة التى اصطادها بوستجر ونسرين .

وبعد أن تناولنا غداء ثريا أعده لنا حسن الطباخ الممتاز ، دخنا ـ بسعادة ـ خارج الخيام ـ واستمتعنا بحياة البر (حياة الخيام) الشرقية الرائعة حتى اكتشفت فجأة أن المسافة المستوية بين الصخرة الوسطى والساحل الشمالى للجزيرة مغطاة بكل أنواع الطيور فقد استطعت ـ باستخدام المنظار ـ أن أرى أسرابا من البلشون (مالك الحزين) والبجع والنوارس وبينها بعض نسور النهر ، فزحفت على طول

الشاطيء بأفضل ما أستطيع لأصل الى سرب من الطيور يكاد يكون فى حالة نوم كما كان بعضها يحتضن افراخه • لقد كدت اصل بالفعل اليها لكننى فزعت عندما رأيت بجعتين تسبحان بالقرب وكأنهما تقومان بدور الحراسة لهذه الطيور . وقد أصبحت مكشوفا للرؤية من الجانبين ، وتنبهت الطيور جميعا • لقد صدمتنى الطيور البارعة ونهضت فنبهت الطيور الآخرى فخفقت جميعا بأجنحتها وطارت متفرقة فى كل اتجاه •

ولم يبق الا طيور النورس الساذجة التى راحت تتقصى سبب هذا الهياج ، ثم راحت تحلق فوقى صارخة ، وسعدت كثيرا عندما اكتشفت بين الطيور الصغيرة نورسا ذا رأس بنى كبير من النوارس الصيادة للسمك ، وكان ــ بالنسبة لى ــ نوعا جديدا ، فأطلقت طلقة ناجحة فهوى ووضعته فى حقيبتى •

ولابد أن تكون هذه البقعة التى كانت تستريح فيها أسراب الطيور الآنف ذكرها مكانا تتردد عليه هذه الطيور كل يوم وتمكث فيها للراحة ، وذلك لأن أرض البقعة كلها كانت مغطاة بطبقة سميكة بيضاء من زرق (بفتح الزاى والراء) هذه الطيور (برازها) وتناثر فيها ريش طويل هنا وهناك بالاضافة لبقايا كثيرة من أسماك متعفنة •

وعند عودتى للمعسكر قررنا مرة أخرى أن نقسم الساحل بيننا ، استعدادا لمعركة صيد نخوضها بعد الظهر وفى المساء •

وقد اخترت لنفسى البقعة التى اصطاد فيها الصديق بوسنجر بجعته فى الصباح ، فجثمت بين الشجيرات وخلفى الحمال العربى التابع لى • لقد كان مع كل واحد منا واحد من هؤلاء الرفقاء (الحمالين) داكنى البشرة • ومهمتهم أن يحضروا لك الطيور التى تسقط فى الماء ويساعدوك فى غير

دب من الاعمال ، وما على المرء الا أن يحــذر الدخول فى أحاديث طويلة مع هؤلاء الناس الذين يحبون المال وان يحذر المبالغة فى ابداء سروره عند كل نجاح يحققونه فى عملهم ، والا فانهم سيبدءون فى المســاومة ويرفعون الثمن المطلوب بشكل دءوب • لقد أدرك هؤلاء الناس بنظرة ماكرة ازدياد حبنا لرياضة الصيد • لقــد كان يجب عـلى المرء أن يريهم العملة (النقود) قبل بدء الصيد كما أن شــيئا من الضغط ذى الطابع الودى يجعلهم ينزلون الى المــاء (لجلب الطيــور التى سقطت به) •

وكان على أن أنتظر ــ عبثا ــ نصف ساعة قبل أن تتجه بجعة ــ رأيتها على البعد ــ نحو مكمنى ، ولما أصبحت قريبة قربا كافيا أطلقت طلقــة مزدوجة (طلقتين بضــغطة زناد واحدة) فاصابت الطائر واخترقت ريشه السميك ، وهبط الطائر بخفقات واهنة من جناحيه للماء وظل يسبح لدقائق قليلة ببطء ويدور حــول نفســه ، وبدأ رأســه ومنقــاره السـميك يهبطان رويدا رويدا ثم ما لبثت الأمــواج أن قلبته • لقد أسلمت البجعة الروح وهى مقلوبة على ظهرها •

ولم يفلح الاغراء كما لم يفلح التهديد فى حث الحمال العربى المرافق لى على النزول للماء لأن البجعة كانت ــ وهذا حقيقى ــ على بعد غير قليل ، فعدت مسرعا للمعسكر لطلب مزيد من العون ، ولما عدت رأيت رجلا داكنا أصبح بالفعل قريبــا من البجعــة بين الأمــواج ذات الزبد • وكم كانت سعادتى وفرحتى ! فان الدوق الكبير كان فى مكمن غير بعيد ولما رأى الطائر قد هوى ومات أرسل تابعه (الحمال المرافق له) وكان سباحا ماهرا لاحضاره •

وما هى الا دقائق حتى عاد العربى الشجاع سابحا وهو يسحب خلفه الطائر الثقيل من منقاره • وقد كنت سـعيدا بأول بجعة أصطادها • لقد كانت بجعة ضخمة بشــكل غـير

عادى . وفى ساعات المساء تجولت على شاطىء الجزيرة بحثا عن الطيور الصغيرة ·

ولما عم الظلام ولم نستطع تبين أهدافنا عدنا جميعا لتناول العشاء ، وشهدت الأمسية عرضا آخر لما اقتنصناه ، وسرعان ما استغرقنا فى النوم بعد يوم ممتع ·

وكان علينا أن نجدف الى الجانب الآخر من الجزيرة فى بكور الصباح التالى لننتظر على لسان من الأرض مرور أسراب الطيور الا أن الجو فى الليل ـ للأسف ـ كان سيئا ، وقبل شروق الشمس زادت العاصفة وكشرت عن أنيابها حتى ان المسئولين عن القوارب رفضوا الاقلاع بها ، ولم يكن أمامنا الا أن نقضى يوما آخر فى الجزيرة · ونمنا جميعا الى وقت متأخر وذهبنا فى فترة قبل الظهر مع الكلاب نفتش بين الصخور وذهب جهدنا هباء فلم نجد وشقا واحدا ، أما بقية اليوم فقضيناه على شاطىء الجزيرة ·

لقد كانت الطيور البحرية تبتعد عنا وتتجنب بمهارة الاقتراب من الجزيرة ، ولما اقترب المساء درت حول شاطىء الجزيرة كله ، وانطلقت بندقيتى على صقر بريرى جميل ، وعلى بعض طيور الشاطىء ، وأيضا على غراب ·

وهدأت العاصفة وصفت السماء فابتهجنا بما تبقى من أشعة الشمس ، وبالأثر الجميل للضياء · ولم أشعر بالرضا التام الا بعد أن رأيت فى اليوم التالى قارب صيد يأتى بهدوء حول الطرف الغربى للجزيرة · لقد أتى راكبو القارب من ناحية الغرب وكانوا فى طريقهم للارض الزراعية ، فمروا بالقرب من مكمنى ·

لقد كان مستقلو القارب ذوى نظرات وحشية ويرتدون اسمالا بالية ، وكانوا يغنون اثناء تجديفهم اغانى مخصوصه معدة للغناء اثناء العمل ، وهى اغان كئيبه وغريبه . لقد نظرنا اليهم بدهشة ، فليس ثمة اثر للحياة البشريه على هذه الجزيرة من بعيد او قريب . وهناك ، خلف البحيرة صحراء ، فما الذى جاء بهذا القارب الوطنى الافريقى الذى يستقله رجال سود الى ماء البحيرة ؟! ولم يكن هؤلاء الناس الطيبون أقل دهشة عندما رأونى . فقد كانت عيونهم تتساءل : اوربى أبيض على الجزيرة القاحلة ؟! ان ما نعرفه أن البجع وحده هو قاطنها الوحيد . وبدأ العربى المرافق لى حوارا طويلا معهم لم أستنتج من معانيه الا ما يتعلق بالمناخ وكيفية العبور .

كانت حصيلتنا من الصيد قليلة جدا هذا اليوم مقارنة باليوم السابق . لقد بدت الجزيرة خالية ، وبعد أن تناولنا العشاء قام العرب المرافقون لنا ببعض الألعاب النارية ، وهى العاب تثير البهجة فى نفوس كل الشرقيين ، وكانوا أثناء ألعابهم هذه يثيرون ضجة مرعبة ، ولم ندعهم يستمرون طويلا فى ألعابهم هذه وجلبتهم تلك ، حتى نقضى الليل بهدوء .

وقبل طلوع نهار اليوم السادس والعشرين من الشهر غادرنا خيامنا ، وتناولنا افطارا سريعا ، وبدأنا يومنا ، فقد كان ماء البحيرة هادئا لذا ، فقد استطعنا عبور البحيرة الى الجانب الصحراوى ، وكانت الخطة تقضى أن ينتقل معسكرنا الى الجانب الآخر حيث الأرض الزراعية فى المساء . وقد مضى وقت طويل قبل أن يستقل رجالنا القوارب ، فكل أهل الشرق لا يتسمون بالدقة . لقد بدأ المسئولون عن استقلالنا القوارب وهم نصف نائمين ، لقد قلبوا الشاطىء رأسا على عقب وتسببوا فى فوضى كبيرة واستغرقت اعادة الأمور لنصابها وقتا .

وبعد برهة ركبنا ومعنا الكلاب ثلاثة قوارب وجدف العرب المرافقون لنا تجديفهم المعتاد وغنوا أغانيهم بصوت أجش • وكانت الرائحة المنبعثة من القوارب لا تكاد تحتمل• ولحسن الحظ فان البحيرة كانت تمتد أمامنا هادئة ناعمة ، ففى مثل هذه القوارب التى يقودها عرب يداعب عيونهم النعاس وفى مثل هذا الوقت حيث لم يغمر الكون الضياء ــ كان يمكن أن نمر بتجارب محزنة خاصة اذا هبت عاصفة • وبعد ساعة وصلنا الشاطىء عند رأس مكون من كتل حجرية ممتد فى الماء ولا يربطه بالبر الرئيسى سوى ممشى (عنق) ضيق جدا • ونزلنا الشاطىء وأرسلنا العرب بالقارب لعنق الصخرة ، ومضى بعض الوقت قبل أن تنزع تمليماتنا الواضحة والتى تتطلب نشاطا ، رفاقنا العرب داكنى البشرة من صمتهم ، ولم يكن هناك وقت نضيعه فلابد أن يكون العبور من عند عنق الصخرة الموصل للبر الرئيسى آمنا ، خاصة وقد بدأ الخط الأبيض يطل من الشرق مزيحا الخط الأسود ••

ونظمنا أنفسنا على طول هذه الرقبة وكمنا خلف الشجيرات الكثيفة ، فعند الفجر يبدأ مرور طيور الماء ، وكان البلشون (مالك الحزين) أول ما أطل علينا ثم تلاه الفاق ، ثم البط والبجع والنوارس وطيور الرمال الصغيرة ــ الصقور ــ ونسور النهر ، وتوالت الطلقات على طول الخط (العنق) وحظيت البجعات خاصة بطلقات لا تكاد تتوقف الا أن المسافة كانت ــ لسوء الحظ ــ بعيدة جدا ، وشردت بجعتان فقط الى المرتفعات المنخفضة فأطلق عليهما رجلان منا • لقد اختفت النجوم للتو وأشرقت الشمس الأفريقية الجميلة وبدأنا نشعر بحرارة الشمس المشرقة فى سماء صافية • ولما غادرنا أماكننا كانت أسراب الطيور قد اختفت • وحمل كل واحد منا ما اصطاده وعدنا الى مكان رسونا غير البعيد جيدا عند الصخرة ، وهنالك تجمعنا حيث كانت قواربنا والعرب المرافقون لنا وعثمان فى حالة استعداد •

لقد سقطت بجمتان وعدد آخر من طيور الماء بالاضافة ونسر بائس من آكلات الجيف كان يمر بين خط النار وكان عليه أن ينجو بحياته •

وبعد آن استرحنا قليلا نهضنا ثانية لنبحث عن الطرائد بين اشجار الشاطىء ، وبدانا من عند اللسان (الرقبه) حيث اشـجار الطرفاء الكثيفـة (١٩) غـير كامله النمو والعاب والحشائش المنتشرة على الشاطىء الى الشمال والى الجنوب من اللسان (الرقبه) انف الذكر • ولا يكاد الانسان يخترق هذا الغطاء النباتي الكثيف ـ فى كثير من الأماكن ـ الا بشق الأنفس رغم ضيق الشريط الذى يغطيه اذ قلما يزيد عرضه عن عشر خطوات أو عشرين خطـوة ، اذ تطغى الصـحراء العظيمة على الخضرة بتلالها ووديانها (الجافة) ورمالهـا الناعمة ، وأحيانا بأحجارها ذوات الألوان المتعددة •

لقد بقى البارون ساورما ومعه الكلاب عنـد الموضـع الذى تبدأ فيه الشجيرات بالقرب من العنق انف الذكر • وتم وضع البنادق الأخرى على مسافات متساوية ، وذلك وفقـا لخطته ، وقد اتخذت لنفسى أبعـد المـواقع فى بقعة كانت الشجيرات تترك بينها فرجة ضيقة ، حيث كان المدى أمامى مكشوفا وآمنا لاطلاق النار بحرية على الساحل • وقد حددت هذه البقعة الحدود الطبيعية للضربة الأولى •

وفى طريقنا خلال الرمال أتيحت لنا فرصة تفحص آثار أقدام كثيرة ومختلفة • يبدو أن وحوشا تأتى من الصـحراء ليلا الى الشاطىء لتشرب وربما أيضا لتفاجىء الطيور المائية النائمة • لقد كانت هناك آثار متتالية ويعلو بعضها بعضا ، فتلك آثار ضبع والى جوارها آثار ذئب بالاضافة لآثار ابن آوى وثعلب الصحراء وهناك ما يشير الى السحالى الضخمة ، وآثار عريضـة لزحف الحيـات كانت واضحة عـلى الرمال

الناعمة • وما كدت أصل لموقعى حتى بدأت الكلاب فى الصيد ، وان كان ذلك ــ والحق يقال ــ على مسافة بعيدة منى ، لكن نباحها العالى اقترب من موقعى •

وفجأة ظهر بالقرب من الشاطىء الرملى حيوان طويل رمادى خشن الوبر له راس مستدق وذيل طويل بشع (عديم الشكل Shapele.s) • فاطلقت عليه النار فخر • انه النمس ، وهو حيوان افريقى اصيل ، كما انه حيوان بشع جدا ، فلم ار له شبيها فى الشكل والعادات بين الحيوانات الأوربية التى سبق لى اقتناصها • وسرعان ما تتبعته الكلاب• وكان علينا ان نبحث عن مكمن آخر قريب بعد أن كسرت الشجيرة التى كنا نكمن وراءها • ولم تنجح محاولتنا الثانية ــ لسوء الحظ ــ فى القنص •

وقد دلتنا آثار أخفاف البعير فى الرمال على وجود قبيلة بدوية فى المناطق المجاورة وسرعان ما رأينا عددا من جمالها ترعى تحت الشجيرات وسمعنا نباح كلابها ، ورأينا بعض أفراد هذه القبيلة ــ على البعد ــ يقتربون من الخيام • وقيل لى ان القبائل البدوية هنا بائسة جدا وان التعامل معها لا يبعث على الارتياح فهى قبائل صحراوية خالصة وليس لأحد سيطرة عليها البتة •

لقد انقسم فريق الصيد الآن الى قسمين ، وقد اقترحت أنا والبارون ساورما ، الدوق الكبير أن نستقل أحد القوارب المتاحة وأن نحاول الاقتراب من بعض البجع الذى كان يسبح غير بعيد عن البر ، بينما كان على الرجال الآخرين أن ينشغلوا بطيور الغراء السوداء black Coats التى تتردد بكثرة على البوص (الغاب) النامى على ساحل البحيرة •

لقد ذهبت كل مناوراتنا سدى مع هذه البجعات الحذرة ولا حتى طائر البلشون الفضى الكبير الواقف على الساحل

سمح لنا بالاقتراب • لقد ذهبنا الى أماكن أبعد حيث البوص (الغاب) أكثر كثافة ، وحيث امتداده أعمق اذ كان يغطى الماء لمسافة مائة خطوة من الشـاطىء ، وظهر البط الجميـل ذو العيون البيضاء فى طريقه للهجرة وارتفع سرب من هذه الطيور المتشابهة فوق الشجيرات أمام قاربنا وظهر البلشـون ذو اللون النيلى والأزرق والفضى وغير ذلك من الألوان من بين الغاب (البوص) الكثيف • واصطدنا عـددا كبيرا من البط ليكون مئونة نحتفظ بها فى وعاء حفظ اللحوم (اللادر Lader) ، وجلس المسـئولون عن القـوارب وقد تجـردوا من ملابسهم وعند كل طلقة تصيب هدفا ، يقفز الواحد منهم للماء ليحضر الغنيمة ، وفجأة انشق الغاب عن بدوى ضخم ذى كبرياء يحمل بندقيته الطويلة ، وكنا عند ظهوره على بعـد ياردات معدودة من الشاطىء • لقد أتى ليعرض علينا شراء بعض الطيور التى صادها فى الصباح •

وقد اختفى هذا البدوى بهدوء وبلا ضجة كمـا ظهر ، وكان سعيدا بما أعطيناه من قطع عملة فضية قليلة • لقـد اقترب الظهر (منتصف النهار) فجدفنا عائدين الى الرأس الصخرى • ان الشمس لاهبة ، والرائحة فى قاربنا فى هذا الوقت تكون أشد عفونة من الرائحـة المنبعثة ليـلا • وكان يجلس بالقرب منا رجل عجوز أعور مشوه الخلقة على نحو ما له لحية مجعدة بيضـاء وعـلى رأسـه عمامة ، وكان مظهره الخارجى ينم عن عدوانية ، ولم يجـدف ، وانما أتى معنـا فقط حبا للاستطلاع •

ولم نكن سعداء بضيفنا المتطفل هذا فلم يكن قربه منـا فى الحقيقة يخلو من خطر •

ووصلنا للصخرة بأمان فى غضون نصف ساعة حيث كان الرجال الآخرون فى انتظارنا وكانـوا قد اصطادوا عـددا كبيرا من طيور الغراء السوداء(٢٠) Black Coat ، وقد وضعنا

كل ما اصطدناه فى النصف الأول من النهار فى أحد القوارب، وأرسلناها فى عهدة المسئول عن الصيد التابع لى الى الشاطىء المقابل حيث كانت خيامنا (معسكرنا الجديد) قد نصبت هناك ٠

لقد وافق فريق الصيد الآن على قضاء فترة راحة لمدة ساعة ، وتناولنا افطارا متقشفا بالقرب من الشاطىء على منحدر الراس الصخرى ، وكان افطارنا يتكون من اللحم البارد والخبز وبعض الطعام المعلب غير الجيد ، وشراب ليمون غير طيب المذاق ٠ وراحت جماعتنا تتسلى باقتناص السحالى الصغيرة غريبة الشكل والتى للواحدة منها عرف أو شىء كالعرف فوق ظهرها ، وكانت الحيات كامنة تحت الصخور بأعداد غير قليلة ٠

ولم تكن فترة الراحة هذه كافية لانعاشنا فالشمس كانت تلفح بأشعتها الحارقة بشكل مرعب على المنحدر الصخرى وكانت الأرض ملتهبة أما الهواء فكان رسول الحرارة التى تسفع جلودنا ٠ لقد كان أشد أيام رحلتنا حرارة ، وهو أشد حرارة بكثير من أشد أيام صيفنا الأوربى حرارة ٠ وسرعان ما نهضنا مرة أخرى وسرنا تحت الشجيرات بالقرب من الساحل فى الاتجاه الشمالى ٠ لقد كان السير على رمال الصحراء الحارقة التى تعكس الحرارة الشديدة أمرا لا يمكن احتماله الا بشق الأنفس ٠ ومرة أخرى أحطنا بالشجيرات فى فترات محددة وبدأنا رياضة الصيد المحببة للنفوس ٠ وعلى أية حال فان فريق الصيد بدا غير مستعد وكانت المطاردة غير منتظمة فكنا نتقهقر ونتقدم مرات عددا ٠ وبعد أن توقفنا عند الخليج لوقت قصير ظهر نمس أمام الدوق الكبير فقلب الحيوان القبيح لكنه سرعان ما انسحب بين الشجيرات فتعقبته الكلاب ودارت بينها وبينه معركة شرسة ، واشتبك كلب (من نوع داشهند) ضخم طويل

الأرجل مع النمس ، وانفض الغريمان أحدهما عن الاخر بصعوبة فائقة بعد تدخل بعض الرجال فأصابت يد احدهما عضة من الكلب وأصابت الآخر عضة من النمس ٠

وفى هذه الأثناء مرت كثير من طيور الغاق والبلشون بالقرب منى على طول الشاطىء لكننى لم أطلق النار عليها ، انتظارا للغنيمة الاكبر (النمس) ٠ ولما كانت فترة بعد الظهيرة قد حلت فقد قررنا أن نبدأ فى التجديف عائدين الى الجانب الآخر وأن نتخذ فى طريق العودة خطا مباشرا مستقيما ٠ لقد أصبح الهواء أبرد وكان بامكاننا الاستمتاع الآن بأن نلقى نظرة على مياه البحيرة ، وأن نلقى نظرة شاملة على الصحراء ، فالظروف الآن مواتية أكثر مما كان عليه الحال فى الصباح الباكر ٠

وكان مسئولو القوارب يتمتعون بروح معنوية عالية ، فكانوا يخلعون ملابسهم ويقذفون بأنفسهم فى الماء بين صياح طيور الماء واضطراب صغارها غيرالقادرة على الهرب، ثم يسبحون عائدين ليلحقوا بالقوارب ، وقد قدم كل واحد منهم من اتجاه مختلف ، وكانت لهذه المباراة ميزة عملية لنا فقد جعلت المجدفين يجدفون بطريقة أسرع ٠

ووصلنا بعد رحلة استغرقت الساعتين ، وبعد أن مررنا بأدغال الصفصاف على الساحل الرملى الذى اقمنا عليه خيامنا ، وجدنا كل شىء جاهزا ومنظما بطريقة مريحة ٠ لقد اختاروا هذه البقعة بعناية فهذا الساحل الجاف يفصل البحيرة عن المستنقع (المنطقة السبخة) ٠ ولأن العشاء لم يكن جاهزا فقد ذهب بعضنا مباشرة للمستنقع (المنطقة السبخة) الذى يقع بين معسكرنا وأول الحقول المزروعة ٠

وفى هذه المنطقة التى يغطيها البوص وأشجار الصفصاف والأعشاب والخث (بضم الخاء) (٢١) البنى كريه الرائحة ،

يجد المرء حشودا من طيور دجاجات الأرض والشناقب (المفرد : شنقب بضم الشين وتسكين النون) ـ البط ايضا ونوعين من طيور الزقزاق ، وراحت الضفادع تقفز هنا وهناك بأعداد كبيرة ، وكانت البقعة كلها تعج بالحشرات السامة ٠

وأطلقنا كثيرا من الطلقات على أنواع مختلفة من طيور المستنقعات وانسحبنا من هذا المكان المعبأ بجو المستنقعات الجالب للحمى ، قبل ظهور الشفق ، وكان منظر الشمس الجميل حال غروبها ، وطعام العشاء الجيد هما خير نهاية لهذا اليوم المثير ، وخلدنا للراحة فى معسكرنا ٠

وفى اليوم السابع والعشرين من الشهر بدأنا مبكرا بهدف ممارسة الصيد طوال طريق عودتنا الى محطة (أبو سكر) ٠

فى البداية سرنا عبر الأرض السبخة واصطدنا بعض الشناقب وأنواع أخرى من الطيور ، وعند عبورنا لحقل كان به عدد من طيور مالك الحزين (أبو قردان ؟) وطيور البويت (أبو طيط) ، أصابت طلقاتنا أهدافها ووصلنا لمنطقة التلال الرملية التى تغطيها حشائش قصيرة وبعض الشجيرات التى تفصل المستنقع (الأرض السبخة) عن الأراضى الزراعية ٠ وطاردت الكلاب بعض الأرانب البرية ، وكان من حظى أنا وأحد المرافقين لنا أن يصطاد كل منا واحدة من هذه المخلوقات المضحكة droll ٠

لقد كان الأرنب الذى اصطدته أرنبا صحراويا حقيقيا ، اذ كان ضئيلا هزيلا طويل السيقان ، لونه كلون الأيائل وكانت أذناه طويلتين مضحكتين تكادان تكونان شفافتين ٠ وبينما كنا نطارد الأرنبين ، أطلقنا النار أيضا على أحد

العواسق (المفرد عوسق وهـو نوع من الصـقور) وبعض الحمـــام •

واسترحنـا لنصف ساعة عنـد المنطقة الفاصلة بين الأرض الزراعيـة ، وأرض الشـجيرات البرية ، وتنـاولت افطارا من طعام بارد وضعه أمامنا بعض العرب •

وبعد أن تناولنا وجبتنا غير المترفة تابعنا طريقنا عبر الحقول والقنوات واختلطنـا بالفـلاحين المجهـدين الذين استخدمناهم لاثارة الطـرائد ، وتبعنا الأطفـال والنسـاء وتركوا الجواميس والمحاريث طمعا فى البقشيش • ولمحنا ــ غير بعيد ــ حقول قصب السكر الواسعة لازالت دون حصاد رغم بدء موسمه ، فأسرعنا اليها يحدونا الأمل •

وناقشنا مشروع الصيد فى هذه الحقول بينما كنا نسير على حافتى قناة جافة عريضة •

ولما وصلنا للبقعة (حقل قصب السكر) وضعنا البنادق، وانتظر الدوق الكبير فى ركن بجوار القناة أما انا وهويوز Hoyos فوقفنا عند الجانب الذى يحد الحقل من ناحيـة القناة وأحاط الآخرون بكل نواحى الحقل • ومما يؤسف له أن عدد البنادق كان قليلا جـدا كمـا كانت المسـافات بين القناصين بعيدة • وبالقرب منا كانت الجواميس والجمـال تحملق فينـا •• ودخـل مثيرو الطرائد بين أعـواد القصب بصعوبة وراحوا يصيحون صيحات مفزعة ، وفى هذه الأثناء أطلق جارى النار فى الحقل ناحية اليمين ، ومن ثم قفز ذئب ضخم بينى وبينه ، وأسرع بخطى فزعة عبر القناة ، ورغم أن المسافة كانت بعيـدة فقـد جريت عبر القنـاة وأطلقت بندقيتى ذات الماسورتين اثر الحيوان الهارب • فأسرع يعبر الحقول ورجله اليمنى الخلفية مجروحة •

وسرعان ما ظهر مثيرو الطرائد ، وظهر من بين أعواد القصب الصفراء ، الفلاحون الداكنون ينظرون بدهشة شديدة بل ان البربر Moors فعلوا الشيء نفسه ، وكان عدد هؤلاء البربر كبيرا ، وقد أقبلوا الواحد اثر الآخر ، وفي يد كل منهم عود قصب يقضم منه ويمتصه • ورحنا نثير الطرائد في الحقل للمرة الثانية •

وفي هذه المرة أطلق جارى طلقة نحو اليسار فقتل ذئبا كبيرا بطلقته الواحدة هذه • وسرعان ما سمعت صوت قعقعة البندقية القديمة (الرفل) التي يحملها أحد الرجال على الجانب الأيسر • لقد أصاب ذئبا لكن اصابته لم تكن مميتة فأصابته الطلقة الثانية بجرح بالغ ، فغادر خارجا من بين أعواد القصب وتلقى الطلقة الثالثة في الخلاء •

وبعد ثلاث دقائق قتل جارى الواقف عن يميني ذئبا آخر كبير الحجم بطلقة واحدة ، وبعد لحظة وثب ذئب اخر بيني وبينه وعبر القناة وولى ، فأطلقت أنا وجارى النار معا في اثره ورأيناه يجر نفسه بين الجاموس نحو حقل قمح ، وقد كانت اصابته بالغة •

ولما ظهر مثيرو الطرائد من مكامنهم تركناهم يخترقون الحقل للمرة الثالثة ، وسرعان ما أدركت أن طريدة ما ستمر في طريقي ، وبالفعل فقد مر أمامي ذئب كبير وسيم يتحرك بسرعة وسط أعواد القصب ، فأطلقت عليه فكان من حسن حظي أن أصيب وهوى • وبعد ذلك بدقائق قليلة أطلق جارى الواقف عن يسار طلقة على ذئب آخر فجرحته جرحا قاسيا فزحف بصعوبة نحو حقل فول مجاور • وهرب ذئبان دون أن يلحقهما أذى ، اذ لم تطلهما طلقات البنادق •

وأطلق أحد الرجال طلقة على نمس فجرحه جرحا غائرا، لكنه زحف واختبأ بين أعواد القصب الكثيفة، وذهبت جهودنا

سدى فى البحث عن الذئاب الجريحة على مدى ما تصل اليه عيوننا ٠

لقد ذهبنا الآن الى الجانب الآخر لحقل القصب حيث كان مترجمنا قد أمر باعداد خيول الركوب والحمير لتدون فى انتظارنا ٠ ووضعنا الذئاب التى اصطدناها بعناية فوق حمار ، وتحركت قافلتنا مرة أخرى ٠ وتفرق مثيرو الطرائد من مكامنهم فى اتجاهات مختلفة ولم يبق معنا الا الحماران والمرشدون (الأدلاء) ٠

وبدا أحد الحمارين يمارس فى أوقات فراغه مهنة الحاوى ، وهى مهنة محببة للمصريين ، فقد كان يحتفظ بثعبانين كبيرين فى كيس جلدى كان يخبئه تحت ثوبه وكان قد أمسك بهما بالقرب من البحيرة بالأمس ٠٠ ولا شك أنه ابتدع طريقة لجعلهما يتنفسان ٠ ومع ذلك فقد بدا كأنهما ماتا ٠ وفى غضون دقائق قليلة فان هذين الثعبانين البائسين اللذين نزعت أنيابهما ـ قد استعادا نشاطهما ، وزحفا عائدين للكيس الجلدى البنى ٠ وكنا نسير ببطء وكانت الكلاب (من نوع الداشهند) تجرى بجوار الخيول ، لكن عندما اقتربنا من قرية صغيرة بائسة ليس فيها ما يسترعى الانتباه الا بعض النخيل وبعض أشجار الجميز ٠ اختفت الكلاب فى حقل فول مربع الشكل ، وعلى الفور بدأنا عملية صيد متسمة بالحيوية ٠ لقد ترجلنا عن خيولنا وأحطنا بالحقل الذى كان يمكن أن نغطيه بطلقاتنا من جانب الى جانب ، واستمرت عملية الصيد فى هذا الحقل الضيق زهاء ربع الساعة ، وأطل نمسان بالقرب من بنادقنا لكننا أحجمنا عن اطلاق النار مخافة أن يصيب أحدنا جاره وأدرك النمسان الموقف فلم يغادرا الحقل الآمن رغم مطاردة الكلاب ٠ ولأن الوقت يمضى سريعا فقد كان علينا أن نستدعى الكلاب ونستمر فى مسيرنا دون أن نحقق أهدافنا فى الصيد ، وأدى

بنا الطريق الى تجاوز خط السكك الحديدية الذى يربط بين حقول القصب ومصنع السكر فى (أبو سكر) ، وأوقفنا قطارا عابرا ودخلنا عربة فارغة ، وبهذه الطريقة وصلنا (أبو سكر) بسرعة ٠

وركب العرب المصاحبون لنا بمهارة وسرعة لا تصدق بين العربات ٠ ولما كان لدينا متسع من الوقت فقد قررنا ان نثير الطرائد فى حقل قصب السكر الذى كنا قد اصطدنا فيه أول يوم ، وذلك على سبيل التجربة ، واحطنا بالحقل وجمعنا اكبر عدد من سائقى الدواب والسياس ، وما كدنا نبدأ العمل حتى قفز ذئب بجوار احدى البنادق التى كانت قائمة فى أحد الأركان ولم يستطع جارى اطلاق النار لقرب الذئب منه ومخافة اصابة أحد الحضور ، ولما استعد للاطلاق كان الذئب قد ولى بعيدا ٠

وما هى الا ثوان حتى أطلق أحد رجالنا النار على ذئب وسيم جدا ٠ لقد كان اضخم من كل الذئاب التى سبق لنا قتلها ، وقبل أن يخرج مثيرو الطرائد كانت البنادق قد أصابت ذئبين ، وضاعت منا احدى دجاجات الأرض a wood cock (٢٢) ٠

لقد غادرنا هذا الحقل الآن وكان حصادنا منه من الطرائد هذه المرة أكثر مما كان عليه الحال فى المرة السابقة ٠ وعلى المحطة ، بدا حصادنا من الطرائد غير عادى : ستة ذئاب أحدثنا بها جروحا فى يوم واحد ، وكان لدينا ما يجعلنا نرضى عن حصاد رحلتنا من الصيد فى الفيوم، فقد كان هذا الحصاد يتمثل فى وشقين (الوشق حيوان من فصيلة السنانير وهو أصغر من النمر) وسبعة ذئاب ونمسين وأرنبين بريين ، وأربع بجعات ونسرين من نسور النهر ، وأحد صقور الجيف ونسر أفريقى جارح، ومائة وسبعين طائرا صغيرا كان من بينها أنواع غريبة ٠

وتناولنا عشاءنا فى صالة الانتظار ، وكان المساء وقد هبط الليل ووقفنا مستعدين فوضعت حاجياتنا فى الحافلات وغادرنا (أبو سكر) وبقى معنا الاخوان ساورما والأمير تاكسس Taxis طوال ساعتين ثم فارقانا عند وصولنا لوادى النيل •

★★★

وبعد وداع حار ركبنا الباخرة متجهين جنوبا الى أسيوط الهدف التالى لرحلتنا النيلية الممتعة وخلدنا للراحة فى الحافلات وسرعان ما وجدنا أن النوم هو أفضل مكافأة بعد الجهد الذى بذلناه •

تعليقـــات المترجـــم
عن الفصـــل الأول

(١) تريست أو تريستا ــ الآن ــ ضمن الحدود الايطالية فى أقصى الشمال الشرقى لايطاليا ، قريبة من حدود ما كان يعرف بيوغسلافيا ، لكن الأمور لم تكن على هذا النحو وقت قيام الأرشيدوق ردولف برحلته ، ومن المفيد هنا استعراض وضع تريست هذه للقارىء الذى يقرأ الرحلة من منظور تاريخى ، فقد استعادت النمسا سيطرتها على تريست والساحل الدلماسى بل وامتدت سيطرتها على معظم ايطاليا • بعد مؤتمر فينا الشهير ١٨١٥ • كل ذلك بمباركه أوربية ، رغبة فى سيادة المبـادىء المحافظة ، ورغبة فى ابعاد فرنســا عن التأثير فى الساحة الأوربيــة ، وكانت رغبة الايطاليين فى استعادة تريست ــ بالاضافة لأسباب أخرى • أحد أسباب انضمام ايطاليا للحلفاء ضد دولتى الوسط (ألمانيا والنمســا) فى الحرب العالمية الأولى • وقد قام ردولف برحلته هذه فى الفترة التى يعتبرها المؤرخون ممثلة للتحالفات والتحالفات المضادة التى مهدت للحرب العالمية الأولى •

(٢) وقت القيام بالرحلة كانت النمسا والمجر تشكلان كيانا سياسيا واحدا باسم مملكة النمسا والمجر أو المملكة الثنائية ، وكان نظامها يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر دستورها وادارتها الذاتية ، أما شئون الدفــاع والسياســة الخارجيــة فكانت من اختصــاص الادارة الامبراطورية فى فينا ، وكانت المملكة الثنائية تضم عديدا من الأقليات القومية النشطة كالتشيك والبولنديين والسلاف والكروات والطلبات ، وظل هذا الكيان السياسى قائما فى الفترة من ١٨٦٧ الى ١٩١٨ • وهذه المعلومة تفسر كثيرا من العبارات الواردة فى ثنايا الرحلة •

(٣) كما سيتضح من سياق الرحلة ، فان الأمير رودلف كان يعتبر نفسه ــ سواء فى مصر أو فى القدس فى أرض مقدسة ، وقد وصف مصر فى أكثر من مكان فى رحلته هذه بأنها أرض مقدسة ، كما وصفها لاعتبارات دينية بأنها أرض الرب ، فلا غرابة اذن أن يصف نفسه ومن معه بأنهــم حجاج •

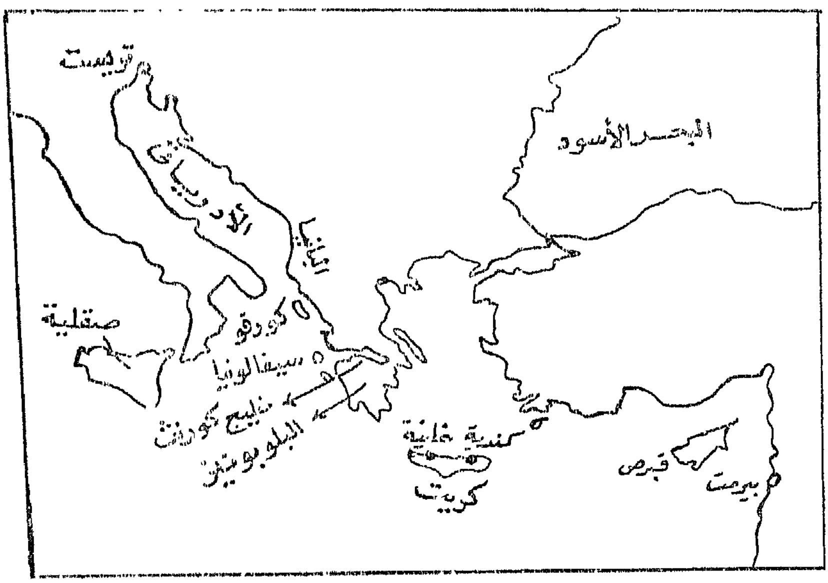
(٤) هكذا بالنص ، وهو تعبير غير دقيق ، والمقصود أن البرد كان قارسا ، وأن درجة الحرارة قد بلغت عشرين درجة مئوية •

(٥) اشارة الى رحلة قام بها فى غرب أوربا ، والمحيط المقصود هنا هو الأطلنطى •

(٦) فى مواجهة الساحل الألبانى حاليا ، لكنها ذات طابع يونانى • انظر الخريطة •

(٧) اشارة للصراع القديم على البانيا التى كانت تطمع النمسا فى ضمها ، ويطمع الصرب الذين يؤيدهم الروس فى اجتياحها وجعلها جزءا من صربيا الكبرى • ترى هل اختلفت التحالفات والتحالفات المضادة ازاء البلقان فى القرن التاسع عشر عما هى عليه الآن ؟ أيهم المانيا والنمسا قيام الصرب الكبرى المتحالفة تقليديا مع روسيا ؟ ــ (المترجم) •

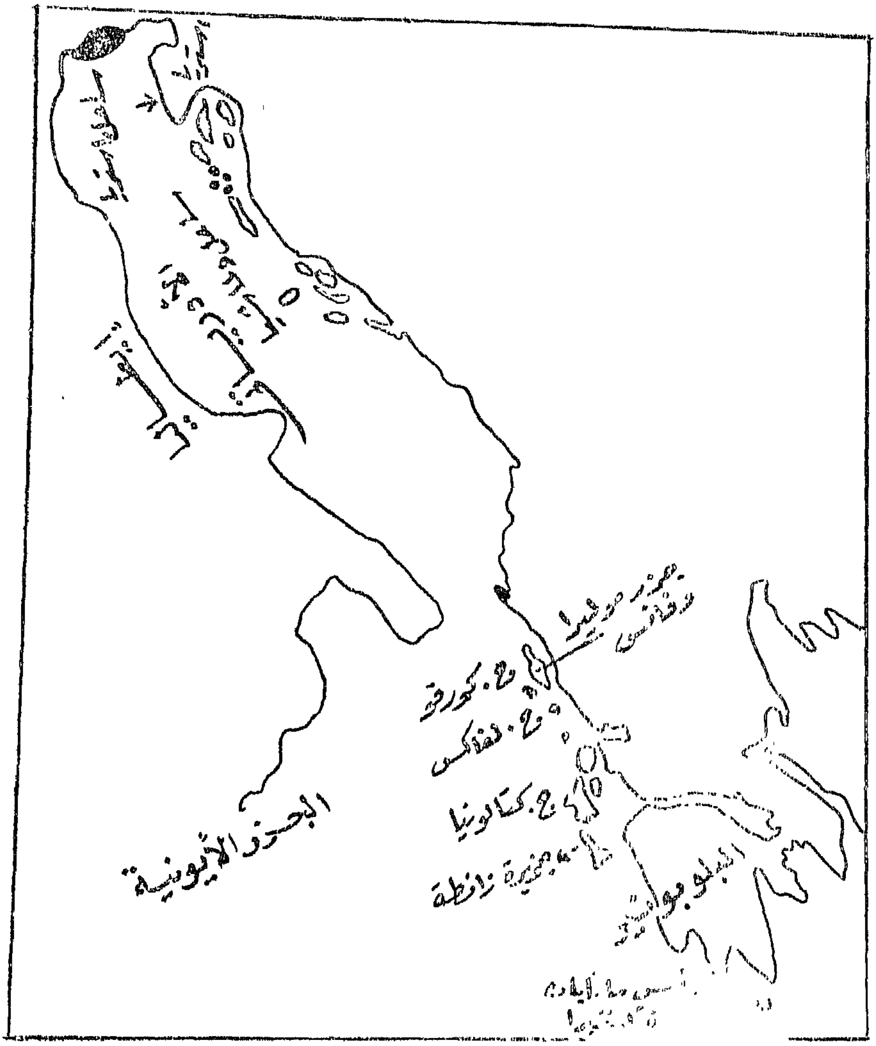
(٨) تشير الخريطة التالية لكثير من المعالم التى اشار اليها الأمير ردولف فى هذا الفصل :



(٩) أشرنا للصراع على البانيا فى حاشية سابقة ــ انظر أيضا مقدمة الترجمة العربية •

(١٠) السرو Sypresses ــ كما ورد فى معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : شجر حرجى دائم الخضرة هرمى وشكل ، وهو على أنواع •

(١١) انظر الخريطة التفصيلية التالية :



(١٢) انظر الخريطة بالحاشية السابقة ٠

(١٣) هو الشاعر الاغريقى العظيم هوميروس الذى نسبت اليه الالياذة والأوديسة ، وقد اثرت اشعاره فى آداب العالم كله ، عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد ٠ ويتشكل الباحثون فى نسبة الأوديسية اليه

سيد احمد الناصرى : الاغريق تاريخهم وحضارتهم ٠ مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٨٤ ٠

(١٤) أهمهـا : كورفو وزانطـة وكتالونيـا · انظـر الخريطـة حاشية ١١ ·

(١٥) بطلها أوديسيوس ويسميه الرومان أوليكسيس Ulixes لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع الى :

- أمين سلامة : معجم الاعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية ·
- صقر خفاجة : هوميروس ، ١٩٥٦ ·
- لطفى عبد الوهاب يحيى : هوميروس ، تاريخ حيـاة ، ١٩٦٨ ·

(١٦) ديانا ، وبالاغريقية أرتميس ، يطلق عليها هى وأختها مينرفا « العذراوان البيضاوان » سلحها جوبيتر بقوس وسهام وجعلها ملكة الغابات وجعل لها حاشية من ستين حورية » ، ألزمتهن ديانا عفة كاملة ، وكان الصيد هو تسلية ديانا المفضلة ···

انظر على سبيل المثال :

كوملان ، ب : الأساطير الاغريقية والرومانية ، ترجمة أحمد رضـا محمد رضا (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢) ، ص ٣٨ ·

(١٧) راجع مقدمة المترجم ·

(١٨) اشارة لازدهار الحضارة أيام العظمة اليونانية القديمة ·

(١٩) تقول الأسطورة الاغريقية ان اسكليبيوس تدرب حتى أصبح طبيبا ماهرا قادرا على احياء الموتى ، فأرسل زوس صاعقة قتلته ثم عاد فعفا عنه ورفعه مرة أخرى لمرتبة الآلهة وقامت عبادة اسكليبيوس هذا فى بعض مناطق اليونان ، وكان الثعبان الملتف حول قائم من الرموز التى تشير اليه (الرمز نفسه لازال مستخدما للاشارة للطب والدواء ، ونجده معلقا فى الصـيدليات) وكان الكلب أيضـا مقدسـا فى ديانته ، انتقلت عبادته للرومان ·

انظر : امين سلامة : معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية ·

(٢٠) بطل الأوديسة - انظر حاشية ١٣ و ١٥ ·

(٢١) رب البحر فى الأساطير الاغريقية والرومانية وله سلطان على الرياح ···

أمين سلامة : مرجع سبق ذكره ·

(٢٢) من الفصيلة البلشونية ورتبته طويل الساق ، والاسم الشائع في مصر (أبو قردان) وهو أبيض طويل الساق ويسمى صديق الفلاح ، وثمة أنواع أخرى بعضها رمادى وبعضها حمراء ـ (المترجم) ·

(٢٣) Cormorant غاق ، والمؤنث غاقة · طير مائى من الفصيلة البجعية ورتبته كفيات القدم ، ومن أسمائه أيضا Sea ravenو Cool goose . عن معجم الشهابى ـ (المترجم) ·

(٢٤) الغواص diver طائر له قدرة على الغوص المحدود فى الماء · صغير الحجم · يرى بكثرة محلقا على ضفاف النيل ـ (المترجم) ·

(٢٥) Sea mew ويسمى أيضا زمج الماء (بتشديد الميم وفتحها) ويطير أسرابا فوق البحار والشواطىء وريشه طويل ، ومن رتبة كفيات القدم ·

راجع مادة Sea-gull بمعجم الشهابى ـ (المترجم) ·

(٢٦) هذه العادة (توجيه الوجه صوب الوطن عندما يحرز المرء انتصارا أو يقوم بعمل مشرف) لازالت فيما يبدو موجودة بوضوح عند بعض الشعوب الأوربية ، وكان الشخص يهدى ـ بتصرفه هذا ـ انتصاره أو عمله الى بنى وطنه ، ومنذ عدة أعوام رأيت بعض الشباب الانجليز والألمان (كان عددهم ثلاثة ـ انجليزيان وألمانى) فى منطقة الأهرام ، ولما أفلح الألمانى فى تسلق بعض صخور الهرم ، راح ينظر بعيدا موليا ظهره لزميليه (الانجليزيين) ، ولما سألت سؤالا عابرا : لأى شىء ينظر ؟ قال الانجليزيان وهما يضحكان : الى ألمانيا To Germany · ولم أدرك وقتها الأبعاد الكاملة لهذا التصرف · ومن أغرب ما رأيت فى هذا الأمر وتحققت منه تماما أن بعض الايرانيين فى منطقة الخليج ، بعد أن يؤدوا صلواتهم ووجوههم صوب الكعبة المشرفة ، يغيرون اتجاه وجوههم ليجعلوها صوب فارس (ايران) وهم يقولون الدعاء أو التسبيح ، فكأنهم يصلون صوب الكعبة (المشرفة) ويدعون ويسبحون صوب ايران ، كما لاحظت أنهم يفعلون الشىء نفسه (تولية الوجه صوب بلدهم) فى مواقف مختلفة ، ومن المؤكد أنهم فى شهر رمضان المبارك لا يفطرون الا اذا انطلق مدفع الافطار فى ايران ، وليس فى البلد الذى يقيمون فيه رغم الفارق الزمنى · حقا أن الرّحلات منبع لا ينضب للعلم والمعرفة ـ (المترجم) ·

(٢٧) من الجزر الأيونية ـ انظر الخريطة ، حاشية ١١ ·

(٢٨) انظر الخريطة ·

(٢٩) انظر الخريطة ·

(٣٠) يطلق الاسم على الساحل الشمالى الشرقى للبحر الأدر
فيما بين الساحل الألبانى وتريست بما فى ذلك ساحل استيريا ، وقد
هذا الساحل الأخير حتى تريست • انظر الخريطة •

(٣١) ما بين القوسين توضيح من المترجم — عن معجم المورد

(٣٢) راجع مادة Lepus فى معجم الشهابى لمصطلحات ال
الزراعية لمعرفة الفرق بين مصطلح Hare وتعنى الأرنب الو
و Lepus وتعنى الأرنب البرى ، فيما يرى صاحب المعج
(المترجم

(٣٣) خطأ مطبعى غالبا ، والصحيح الشرقى — (المترجم) •

(٣٤) فى كريت ، وثمة ميناء بالاسم نفسه (كانديا) أو كاند
انظر الخريطة — حاشية ١١ •

(٣٥) الاشارة الى مصر المقدسة هى ايمان ضمنى بما ورد
الكتاب المسيحى المقدس — وصاحب الرحلة مسيحى — فقد ورد فى
التكوين (جنة الرب أرض مصر) ، وفى السفر نفسه (نهرك يا
النيل •• هو النهر الثانى من أنهار الجنة) وثمة حديث عن الرسول
(صلى الله عليه وسلم) لا يبعد فى معناه عن هذا النص الان
الاخير — (المترجم) •

تعليقـــات المترجـــم

عن الفصـــل الثانى

(١) الساحل المصرى الشمالى يختلف الآن – كما يلاحظ القارىء – عن الوصف الذى يرد فى كتب الرحالة خاصة ، الذين زاروا مصر منـذ عصور بعيدة نسبيا ، ويرجع ذلك الى أن مكونات الساحل الشمالى ترجع فى الاساس الى طمى النيل ومكونـات العـصر الجـيولوجى الحـديث (البلايستوسين) ، فمدينة دمياط على سبيل المثـال عنـدما تم انشـاؤها كميناء كانت تطل على ساحل البحر المتوسط مباشرة ، اما الآن فبينهـــا وبين الساحل عدة كيلو مترات بحيث يمكن القول أن دمياط نفسها لم تعد ميناء ، ويرجع ذلك الى أن طمى النيل الذى كان يجلبه النهر قبل انشاء السد العـــالى كان يزيد من امتداد الدلتا فى البحر أربعة أمتار فى السنة على الأقل ، وذلك فى المتوسط ، ومن هنا نشأت على نحو خاص عدة رؤوس طينية واضحة على خريطة مصر أهمها رأس دمياط ، ورأس رشيد ورأس بلطيم ، وقد طغى طمى النيل فى مواضع كثيرة فى ساحل مصر الشمالى خاصة بين بورسعيد والاسكندرية على المكونات الرملية ، فالقادم الى مصر هذه الأيام عن طريق البحر المتوسط ، لا تقـابله هذه الكثبان الرملية فى المنطقة الآنف ذكـــرها للسبب الذى ذكرنـاه سابقا وللتوســع الزراعى واستصلاح الأراضى ولامتداد البنيان العمرانى · وليس أدل على تغير المسرح الجغرافى للأحداث التاريخية من أن فروع النيل فى الدلتا كانت سبعة أفرع فى التاريخ القديم، تقلصت الى ثلاثة أفرع فى العصر الاسلامى، وهى الآن فرعان كما هو معروف ، أما بقية الشبكة المائيـة فهى جهـد بشرى ، وقد تقلص عدد الأفرع بسبب انسدادها أو امتلائها بطمى النيل · كيف يمكن لباحث تاريخى أن يلم بالأحداث فى العصور القديمة والوسيطة ، بل والحديثة دون معرفة التغيرات الجغرافية أو المسرح الجغرافى التى تجرى فوقه الأحداث غير منفصلة عنه ؟ – (المترجم) ·

انظر على سبيل المثال :

محمد عوض محمد : نهر النيل · القاهرة ، ١٩٦٢ ·

محمد حجازى محمد : نحو دراسة فى جغرافية مصر ، القـاهرة ، ١٩٨٦ ·

محمد صفى الدين ومحمد صبحى عبد الحكيم : دراسات فى جغرافية مصر · القاهرة ، ١٩٥٩ ·

(٢) وقد يكون المقصود نائب السلطان (الخديو) ٠

(٣) ما بين القوسين توضيح من المترجم ٠

(٤) استخدام الأمير ردولف أكثر من مصطلح تشير جميعها للشرق وكان له استخدام خاص بها ، وقد يختلف عن المفاهيم السائدة لدى المؤرخين ٠

ونبدأ بالمفاهيم السائدة لدى المؤرخين ، اذ يرون أن مصطلح الشرق الأدنى Levant يلى مصطلح الشرق الاوسط من حيث المساحه ، وكان المصطلح (الشرق الادنى) يطلق على البلاد الواقعة تحت الحكم العثمانى عندما كانت الدولة العثمانية فى ذروة قوتها واتساعها ، ففى القرن السادس عشر كانت تمتد ــ أحيانا ــ من مشارف فينا الى القرم ومن البحر الأسود الى العراق ومسقط وعدن وشبه الجزيرة العربية وسواحل البحر الأحمر الغربية ومصر والشام وليبيا وتونس الجزائر ٠

أما مصطلح الشرق الأوسط فيضم الى جانب الدول العربية ايران وتركيا (الحالية) وكريت وقبرص والصومال واثيوبيا وباكستان ٠ (انظر على سبيل المثال كتابات عبد العزيز نوار عن تاريخ العالم العربى) ، أما أرنولد توينبى فقد قسم الشرق الادنى من الناحية الحضارية ــ فيما يقول محمد أنيس فى كتابه عن الدولة العثمانية والشرق العربى ــ الى ما يسميه مناطق حضارة الشرق الأدنى Near eastern civilization ويقصد بها الحضارة اليونانية ، وحضارة الشرق الأوسط ويقصد بها المناطق التى ظللتها الحضارة الاسلامية فى الشرق الأدنى ٠ ويقول محمد أنيس فى مطلع كتابه آنف الذكر : ان الأوربيين يقصدون بالشرق الأدنى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ٠

ولكن المتصفح لهذه المرحلة يلاحظ أن ردولف لا يدخل اليونان ضمن مصطلح الشرق الأدنى Levant كما لم يدخل أهلها اليونانيين ضمن مصطلحه Levantine ، والشىء نفسه فعله بالنسبة للأتراك ، وقد يكون النص عليهم (الأتراك) من باب التأكيد عليهم والاهتمام بهم لا لعزلهم عن مفهوم الشرق الأدنى ؟

(٥) كانت إمبراطورية النمسا والمجر تضم العديد من القوميات والأجناس ، وقد حاقت بها الهزائم فى القرن التاسع عشر على يد الحلف الايطالى الفرنسى وعلى يد بروسيا سنة ١٨٦٦ ، فاضطرت الى تعديل أوضاعها بما عرف بالملكة الثنائية ، وكان نظام المملكة الثنائية يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر حكما ذاتيا أو ادارة ذاتية ، كما أن لكل

منها دستوره ، وتتولى الادارة المركزية (الامبراطورية) شئون الدفاع وشئون السياسة الخارجية • وكانت هذه المملكة الثنائية تبسط سيطرتها على عديد من الأجناس والقوميات كالتشيك والبولنديين والسلاف والكروات والايطاليين ـ وهذا يفسر لنا لماذا لم يعتبر ردولف كل هؤلاء (فيما عدا الطليان) ضمن مفهوم الشرق الأدنى ، كما يفسر لنا لماذا أقدم أهل ساحل دلماشيا لاستقباله عندما قدم الى مصر •

(٦) امبراطورية النمسا والمجر فى الفترة التى قام بها ردولف برحلته هو فرنسوا جوزيف الذى يقول عنه المؤرخ فشر : « ••• خلال الحقبه الطويله (١٨٤٨ ـ ١٦١٧) التى استوى فيها فرنسيس جوزيف على عرشه بفينا ، ظل يكدح ويداب فى مكتبه ، ويوسع ويقرأ ، من الصباح الباكر الى عتمة الليل : رجل مفجوع القلب مكلوم الفؤاد ـ هذا اذا كان فى مقدوره أن يشعر بثقل الفجيعه • فقد اغتالت زوجته يد قاتل زنيم ، وازهق ابنه الوحيد روحه بيده ، وألحق ابن أخيه ووريث عرشه العار بأسرته بقران لم يغتفره له الامبراطور ، وذلك بزواجه من سيدة كلف بها ، تدنو مرتبتها الاجتماعية من منزلة الامارة •

لكن سواء أكانت كل مقدرة لفرنسيس (فرانسوا) جوزيف على الشعور والاحساس قد نضب معينها وجف ماؤها نفسه أم لشعور شع فى دخيلته بعظمة منصبه الرفيع ، أم لمجرد أن طبيعته كانت باردة جوفاء ، فان هذا الرجل العجوز واصل السير دون أن يهزه شىء ـ رجل متعبد زاهد الى ، كان يشاد بمدحه بوصفه الفارس الأول فى مملكته والسيد النبيل الأول فى أوربا ••• وقد منيت الامبراطورية النمساوية فى عهده بضربات ساحقة عديدة ••• » •

فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع • ط ٧ • دار المعارف ، ٧٦ • صص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ •

(٧) ليس هذا هو مصطلح العصر •

(٨) من الطبيعى أن يضع أهل شرق أوروبا من الأجناس التى توجد منها جاليات فى الأراضى التى تسيطر عليها مملكة النمسا والمجر تحت الحماية الامبراطورية كهذه الملكة ، ومن الطبيعى أيضا أن ترحب المملكة بذلك خاصة أنها كانت ذات أطماع توسعية •

(٩) نبات تنتهى أوراقه بحقاق صغير • (عن معجم المورد) •
(المترجم) •

(١٠) بعد خروج المسلمين من الأندلس بناء على أوامر كنسية او حكومية ، وخروج اليهود أيضا بناء على رغبة شعبية عارمة ، لم يجد

اليهود من ملجأ لهم الا الدولة العثمانية ومراكش ، وبدا لأوربا ان المسلمين واليهود فى حالة وفاق وتحالف ، وكان الامر كذلك بالفعل لتعرضهم (المسلمين واليهود) لمشاكل مشتركة ، ولم تكن اوربا سعيدة بهذا التحالف حتى انهم كانوا يشبهون المسلمين بأهل السبت Sabathero ، وقد ظل هذا التحالف حوالى قرنين من الزمان وقد حمى اليهود من الابادة ، اما نتائجه بالنسبة للمسلمين او الدولة العثمانية فلم تكن على ما يرام ، فقد عمل اليهود فى البلاط العثمانى على منع اى تقارب اسلامى مسيحى ، كما عملوا على الا يتم صلح عثمانى اسبانى ، وكانت بعض الجهود قد تم بذلها فعلا على هذا الصعيد ، وكنا نظن ان مثل هذه الأفكار – ونعنى بها وجود تشابه خلقى (بكسر الخاء) وخلقى (بضم الخاء) بين المسلمين واليهود قد انتهت من العقل الأوربى بعد القرن الثامن عشر ، ولكننا نقرؤها مرة أخرى فى رحلة ردولف (القرن ١٩) خاصة وانه قارن فى موضع آخر بين (المكر والغش) بين كل من المسلمين واليهود على سواء ٠

عما أوردناه فى هذه الحاشية راجع :

- رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الى مصر والحجاز ، ترجمة د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ (تنشره الآن الهيئة العامة للكتاب – سلسلة الألف كتاب الثانى) ٠
- العثمانيون فى اوربا ، تأليف بول كولز ، ترجمة د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ٠ الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة الألف كتاب الثانى ٠
- رحلة فارتيما (الحاج يونس المصرى) ٠ الهيئة العامة للكتاب سلسلة الالف كتاب الثانى ٠
- دور المسلمين فى انهاك الاقتصاد الاسبانى فى القرن ١٦ وبداية ١٧ ٠ تأليف د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ٠ مجلة جامعة الملك عبد العزيز – جدة ٠ المجلد الأول ، ١٩٨٨ ٠

(١١) سكان مصر الأصليون عرب ، ويرى الرحالة العالم بيرتون أن قبط مصر عرب تحجروا أى انعزلوا لفترة بحكم احاطة الصحراء بالوادى والدلتا ، بل ان ردولف نفسه يذكر فى موضع آخر من رحلته ان قبط مصر لا يختلفون شكلا (فيزيقيا) عن المسلمين ٠

راجع :

رحلة بيرتون لمصر والحجاز ج ١ ، ٢ ، ٣ ٠ (الترجمة الكاملة) سلسلة الألف كتاب الثانى – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

(١٢) ما بين القوسين توضيح من المترجم ٠

(١٣) ما بين القوسين توضيح من المترجم ٠

(١٤) راجـــع حاشـــية رقـــم ٤ ٠

(١٥) نوع من الأشغال الخشبية الدقيقة ٠

(١٦) رحلة ردولف ــ كما هو واضح ــ رحلة رسمية أو شبه رسمية فهو محاط من كل جانب بالمراقبين والمرافقين ولم يحـاول ــ ولا يستطيع ــ أن يتغلغل تغلغلا حقيقيا فى صفوف الشعب ، ومن هنا القموه هذه الاجابة غير الحقيقية ، فهذه الظاهرة لا يخلو منها مجتمع على نحو أو آخر ، وهذه الطائفة من النساء قد تكون من النمسـا أو غيرها ٠

(١٧) الامبراطور الرومانى ديوقلديانوس Diocaletianus واسمه الأصلى ديوقليس ، توفى سنة ٣١٦ م ٠ تعرض المسـيحيون فى عهـده لاضطهاد شديد ، لدرجة أن الكنيسة المرقسية القبطية فى الاسكندرية قررت فيما بعد جعل تاريخ تولى ديوقلديانوس بداية التقويم القبطى ٠

سيد النـاصرى : تاريخ الامبراطوريـة الرومـانية ، ١٩٧٨ ٠ ص ٤٢٠ ــ (المترجم) ٠

(١٨) ليس من الضرورى أن يكون كل الندابين مستأجرون ، وقد ذكر الأمير نفسه فى الفصل الأول أنه شيع أحد اصدقائه الى مثواه الأخير وأنه حزن لذلك حزنا حقيقيا ، وكان ذلك فى فينا ، وفى بلاد الشرق هناك من يحزنون للموتى حزنا حقيقيا ٠

(١٩) قلت هذه السبخات بمرور الوقت لامتداد العمران ، واستصلاح الأراضى ، بالاضافة لدور طمى النيل الذى كان يعمل على ردم بعض هذه السبخات ٠ والسبب الأصلى فى وجود هذه السبخات والمسطحات المائية المالحة ــ فيما يقول الجغرافيون ــ أن البحر كان يطغى على الدلتـا ثم يعود فينحسر عن سواحلها ٠

(٢٠) راجع حواشى الفصل الأول ــ (المترجم) ٠

(٢١) الفجـــور فى مولد الســـيد البدوى ، وقبل ذلك على شرف الآلهـــة ببـــاستيس ٠

(٢٢) يمكن تفسير العبارة المتعاطفة التى ذكرها الأمير ردولف عن عباس حلمى باشا (١٨٤٨ ــ ١٨٥٤) انه كان مناهضـا للنفوذ الفرنسى فى مصر ، ورفضه مشروع قناة السويس الذى تم ، على أية حال ــ فى عهد سعيد باشا والخديو اسـماعيل ، ويجمع المؤرخون ان عبـاس باشـا حلمى لم يكن مرحبا بالنفوذ الأجنبى الأوربى رغم استعانته بالانجليز لانشاء السكك الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة والسويس ٠ أما فيما يتعلق بمقتله فنفضل هنا نقل الروايات المختلفة التى أعـاد عرضـها عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عصر اسماعيل ج ١ :

أ .

« ... اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا فى قصره ببنها .
وهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف فى روايه مقتله . وليس عجيبا أن يختلف الرواة فى ذلك ، فان قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لايسهل اكتساب حقيقتها ، او الاتفاق على روايتها ، لما يكتنفها من الأسرار ، ولانها تقع فى جنح الظلام : بعيده عن الانظار ، فلا يعرف الناس عنها الا ما تتناقله الالسنه بعد وقوعها : ومن هنا ينشأ الاختلاف فى الرواية ؛ ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، احداهما ذكرها اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٦٥) والاخرى ذكرتها مدام اولمب ادوار كما سمعتها بمصر فى أوائل عهد اسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن اسرار مصر ص ١٤٣) .

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك ، ان (عباس) كانت له حاشية من المماليك يقربهم اليه ويصطفيهم ، ويتخذ منهم حراس خدمه ، ولهم عنده من المنزله ما جعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى حاز اكثرهم رتبة قائمقام وكان لهم كبير من خاصة غلمانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ؛ وقد اساء هذا الرئيس معاملة اولئك المماليك ، فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة لأنه كان صغير السن ، فاتخذوا من حداثته مغمز الأقاويل . فسخط عليهم . وشكاهم الى مولاه ، فأمر بجلدهم . فجلدوا ؛ وجردوا من ثيابهم العسكرية . والبسهم خشن اللباس وأرسلهم الى الاصطبلات لخدمة الخيل . فعز ذلك على « مصطفى باشا » أمين خزانة عباس ، لأنهم كانوا من أتباعه المقربين اليه . فسعى جهده لدى سيده ليعفو عنهم . فلم ينل بادىء الأمر بغيته . فلما ذهب عباس باشا الى قصره ببنها يصحبه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الألفى محافظ العاصمة ، رجاهما مصطفى باشا ان يطلبا العفو عنهم ، فطلبا ذلك الى عباس . فأجاب ملتمسهما . وأصدر امرا بالعفو عنهم . وردهم الى مناصبهم . فجاءوا الى بنها ليرفعوا واجب الشكر للأمير . ولكنهم أضمروا الفتك به انتقاما لما أوقع بهم . فائتمروا به مع غلامين من خدمه السراى . يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكر حسين . واتفق الجميع على قتله . وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه . ففى ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يولية سنة ١٨٥٤ م) كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته ، فجاء المؤتمرون فى غسق الليل على اتفاق معهما . وفتحا لهم الباب ، فدخلوا غرفة الأمير . وهو نائم . ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة ، فصده عمر وصفى ، وتكاثر عليه المؤتمرون ، وقتلوه ، ثم أوعزوا الى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتم المتآمرون الخبر الى اليوم التالى ولما لم يستيقظ فى موعده دخل عليه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الألفى فوجداه مقتولا ، فذعرا لهذه الفاجعة ، واتفقا على اخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتيل الى القاهرة فى عربة ، ووصلا به قصره بالحلمية ، وهناك ذاع خبر قتله .

وأراد جماعة من انصار عباس • وعلى راسهم ابراهيم باشا الألفى أن يجعلوا الحكم من بعده لنجله ابراهيم الهامى باشا الذى كان وقتئذ باوروبا • فاتفقوا على استدعائه ليولوه الحكم ، ويمنعوا عنه عمه سعيد باشا اكبر انجال محمد على واحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام القديم • وكان سعيد باشا وقتئذ بالاسكندرية ، يقيم بسراية بالقبارى • فكتبوا سرا الى محافظ الاسكندرية اسماعيل سليم باشا • وابلغوه بما اتفقوا عليه • وطلبوا اليه القيام على الثغر حتى يحضر الهامى باشا • فلما تلا الرسالة لم يشاطرهم رأيهم • لعلمه ان الحكم من حق سعيد باشا ، فقصد اليه من فوره • وأنهى اليه فحوى الرسالة • فشكره سعيد باشا على اخلاصه • وذهب صحبته الى سراى راس التين • واعلن اعتلاءه العرش • واجريت حفلة الجلوس • واطلقوا المدافع • ثم سافر سعيد باشا الى القاهرة بصحبة امراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداء والنفور ، فلما وصلوا الى القاهرة ذهب سعيد الى القلعة وتولى زمام الحكم •

تلك خلاصة رواية اسماعيل باشا سرهنك •

اما رواية مدام اولمب ادوار فخلاصتها ، أن الاميرة نازلى هانم عمة عباس هى التى ائتمرت به وهى فى الاستانة ، وانفذت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت وإياهما ، على أن يعرضا أنفسهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ، كى يشتريهما عباس ويدخلهما فى خدمته • وكان المملوكان على جانب من الجمال • مما يرغب وكيل الأمير فى شرائهما ، فجاءا القاهرة فعلا ونزلا سوق الرقيق ، الى أن رآهما يوما وكيل الأمير ، فراقه جمالهما ، فاشتراهما وادخلهما سراى مولاه ببنها ، فأعجب بهما عباس ، وعهد اليهما بحراسته ليلا ، قالت مدام أولمب ادوار ، فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لأنهما خشيا بأس عباس ، اذ كان قوى البنية ، شديد البطش ، وخافا أن يقاومهما وينجو من فتكهما ، فينكل بهما شر تنكيل ، ويوردهما موارد الهلاك المحتوم ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستجمعان قواتهما لانفاذ القتل عند سنوح الفرصة • حتى جاءتهما النوبة ثانية لحراسة مولاهما ، فاعتزما أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكد يستغرق عباس فى النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ، ولم يدعا له الوقت ليصيح أو يقاوم ، ولما ارتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة بالسراى ، وطلبا الى السائس أن يجهز لهما فورا جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم فى الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بهما عدوا الى القاهرة ، ومن هناك فرا الى الاستانة ، حيث نقدتهما الأميرة نازلى مكافأة سخية على انفاذ المؤامرة •

وتقول مدام اولمب ادوار أن الهامى باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه ، فالتقى باحدهما فى الآستانة ، فقتله رميا برصاص مسدسه ،

ولم يستطيع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على مكان ، وقيل انه أوى الى بلاد الأرناءود فرارا من القتل ٠

فالروايتان ، مع اختلافهما فى بيـان المحرضين على القتل وطريقة ارتكاب الجريمة متفقتان كما ترى فى أن عباس مات مقتولا اثر مؤامرة دبرت لقتله وأنفذت فى قصره ببنها ٠

(٢٣) أجمع الرحـــالة الذين زاروا الشرق أن الخوف ، والخوف وحده ، هو الذى يجعـــل الشرقى يلزم حدوده ، وبتعبير عامى (يخاف ولا يختشى) ، وقد أفاض الرحالة بيرتون فى وصف هذه العـلة خصوصا بالنسبة للموظف الشرقى ، ورفاق السفر ، كما أشار بعض هؤلاء الرحالة من خوف المصريين من ذوى المناصب الرسمية ، بل من مجرد زيهم الرسمى ، وقد يكون فى هذا بعض المبالغة ، والذى لا شك فيه أن دراسات جادة ومحايدة لم تتم ، حتى الآن لتفسير ذلك من منظور تاريخى ونفسى وأنثروبولوجى ٠

(٢٤) يقصد ما يعرف بحى مصر القديمة ٠

(٢٥) أكد الرحالة بيرتون هذا القول فى النصف الثـانى من القـرن التاسع عشر ٠

راجع رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ج ١ ، ٢ ، ٣ نشر الهيئـة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب الثانى ٠

(٢٦) مكان وقوف الشمامسة أمام حامل الأيقونات ٠ انظر : ملحق المترجم (ابراهيم سلامة) لكتاب بتلر : الكنائس القبطية فى مصر ، ج ٢ ٠

(٢٧) المقصود مسجد الحسين كما سيتضح من السياق ٠

(٢٨) مشربيات قوسية ـ اجتهاد من المترجم ٠

(٢٩) النص Scroll ، وفى معجم مصطلحات الفنون (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) تعنى « لفيفة مصورة » وآثرنا ما أوردناه فى المتن لوضوحه ٠

(٣٠) النص : السنة المحمدية ٠

(٣١) ما بين القـــوسين توضيح من المترجم ٠

(٣٢) ثمة خلاف فى أصل كلمة فسطاط ، ومن ذلك أنها معـربة عن الكلمة الاغريقية Fossatum وتعنى المدينة الحصينـة وقد نقلها العرب عن البيزنطيين عند اتصالهم بهم فى حروب الشـام أثناء الفتح الاسلامى ٠ لكن الكلمة وردت فى المعاجم العـربية بمعنى الخيمة ، وفى المعجـــم الوجيز ـ على سبيل المثـال ـ أن الفسطاط بيت يتخذ من الشعر ، وأنها مدينة مصر العتيقـة التى بناها عمرو بن العاص موضع فسطاطه ٠

انظر : المعجم الوجيز مادة فسطاط ·

أيضا : أحمد مختار العبادى : أحداث مصر الاسلامية والمغرب والأندلس (ملحق بكتاب أزمنة التاريخ الاسلامى جـ ١ : الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة ؛ ١٩٨٢ · ص ٤٦٠) ·

(٣٣) أحمد بن طولون ·

(٣٤) جامع السلطان حسن ، هل حسن هذا سلطان ؟!

(٣٥) لا نعرف لهذا أصلا ·

(٣٦) ما بين القوسين توضيح من المترجم ·

(٣٧) Areca – ترجمها معجم الشهابى كوثل (بفتح الكاف والثاء وتسكين الواو) أو كنتيه (بفتح الكاف وتسكين النون) وذكر انه جنس نبات للزينة من النخاميات ، وذكر منه أنواعا – (المترجم) ·

(٣٨) طيور من فصيلة دجاجات الأرض فيما يقول صاحب معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ، ويسميه الشوام شكب (بضم الشين والكاف) وهو على أنواع – (المترجم) ·

تعليقات المترجم

عن الفصل الثالث

(١) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(٢) عن معجم المصطلحات الزراعية للشهابي .

(٣) الهجرة البربرية الى مصر ، هجرة واسعة لم تحظ بالدراسة الكافية ، فقد اهتم الباحثون بهجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية الى مصر ، وكذلك هجرة بعض الشوام ، كما اشارت المراجع لاستيطان الأتراك وأهل الروميللى (شرق أوربا من المسلمين خاصة) ، أما هجرة المغاربة الى مصر واستيطانهم بها فهى لم تحظ بدراسة كافية ومن خلال هذه الرحلة يتضح أن عددا كبيرا منهم قد راحوا يجولون فى صحراء مصر الغربية ، واستقروا فى مصر والفيوم والصعيد ، مما يؤكد عمق الروابط المصرية بالمغرب العربى ، عمقا لا يقل عن ارتباطها بالمشرق العربى - (المترجم) .

(٤) وصف ردولف منخفض الفيوم أكثر من مرة فى رحلته هذه بأنه واحة ، ويمكن التماس العذر له فى ذلك الوقت لأنه وجد الصحارى تحيط بالمنخفض من كل الجهات ، لكن الحقيقة أنه امتداد طبيعى لوادى النيل رغم أنه لا يختلف من حيث التكوين والشكل عن بقية المنخفضات الأخرى بالصحراء الغربية من حيث انخفاض القاع وانحدار أراضيه واحاطته بهضاب مرتفعة ، ومنخفض الفيوم متصل بوادى النيل عن طريق بحر يوسف وهو فرع قديم للنيل ، ويغطى طمى النيل وكان بحر يوسف يخرج من النيل مباشرة قرب ديروط ، ولكنه يستمد مياهه حاليا من ترعة الابراهيمية التى تم حفرها سنة ١٨٧٣ فى عهد الخديو اسماعيل وتخرج من عند أسيوط ، ومن هنا فوصف ردولف منخفض الفيوم بأنه واحة Oasis خطأ واضح - (المترجم) .

عن جغرافية الفيوم انظر على سبيل المثال :

محمد السيد غلاب وآخرون : جغرافية مصر وحوض النيل . القاهرة ، وزارة التربية ، ١٩٩٥ ، ص ٣٢ .

(٥) اتفق كل الرحالة على هذه النقطة (لا شيء يسير فى الشرق ببساطة وهدوء ، وانما لابد من تعقيدات نتيجة البلادة فى العمل ، أو نتيجة عدم الانضباط ، أو نتيجة طبيعة الموظف الشرقى الذى لا ينجز عملا الا اذا تعرض لضغط أو خوف ، أو اشبع غروره بتذلل الآخرين له

أو تقاضى رشوة ···) يشير لذلك بوضوح وتفصيل ، وها هو الأمير ردولف يشير لذلك من منظور آخر فى اواخر عهد الخديو أسماعيل وأشار قبلهما الرحالة فارتيما لشىء كهذا ــ (المترجم) ·

(٦) تأكيد آخر على عمق التأثيرات المغربية فى سكان مصر ، بحيث يمكن القول انه لا يقل كثيرا عن اثر القبائل العربية النازحة من شبه الجزيرة العربية ·

(٧) ويسمى أيضا خضار (بضم الخاء وتشديد الضاد) ، وكلمة الزروار شائعة فى الشام ولكنها لم ترد فى كتب التراث العربية وهو من رتبة ملتصقات الأصابع · عن معجم الشهابى ــ (المترجم) ·

(٨) طيط او ابو طيط أو الزقزاق الشامى وهو طائر طويل الساق يعيش حول الأنهار والمستنقعات ويسمى بالانجليزية أيضا Lapwing ، عن الشهابى ــ (المترجم) ·

(٩) اسمه العلمى Charadius ويسمى بالعامية أحيانا (أبو الروس) وأحيانا دمشق (بفتح الدال وتسكين الميم) طويل الساق · وهو على أنواع : زقزاق ذهبى ، وزقزاق شامى ، وما ذكرناه فى حاشية سابقة ·

(١٠) يلاحظ قارىء الرحلة اشارة ردولف كثيرا لمزارع قصب السكر ، والحقيقة ان الخديو اسماعيل توسع كثيرا فى زراعته لارتفاع أسعار السكر اثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، وزادت العناية بزراعة القصب بعد تراجع اسعار القطن عقب انتهاء الحرب الأمريكية ، واستحدث اسماعيل صناعة السكر وأكثر من مصانعه حتى لا تعتمد البلاد على القطن وحده كمصدر للدخل · الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ٢ ، ص ١٦ ·

(١١) حجل ويسمى أيضا قبج (بفتح القاف والباء) ، والمفرد حجلة، وهو على أنواع : دراج (بضم أوله وتشديد الراء وفتحها) وحجل رومى وحجل اشهب ··· الخ ·

عن معجم الشهابى ــ مادة Partridge (pcdix) ــ (المترجم) ·

(١٢) ويسمى أيضا سقاوة (بفتح السين والقاف) وهو من رتبة الجوارح ــ عن معجم الشهابى ــ (المترجم) ·

(١٣) اغان حزينة ، وهى أغانى أصحاب القوارب والعاملين عليها غالبا ·

(١٤) من أسمائه المعجمية أيضا حوصل (بتسكين الواو وفتح الحاء والصاد) وذلك لأن له حوصلة كبيرة ــ (المترجم) ·

(١٥) حاشية سابقة ــ (المترجم) ·

(١٦) حاشية سابقة ـ (المترجم) ٠

(١٧) رغم تحذير صاحب المعجم الزراعى من ان الناس يترجمون Eagle على انها نسر وهـو خطأ ، فقد أوردنا فى المتن ما اعتـاد عليـه الناس ونورد هنا التصحيح الذى ينبهنا له معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية :

Eagle تعنى العقاب (بضم العين) ، ولا يصح ترجمتها نسرا لأن النسر هو Vulture ، والعقاب كلمة مؤنثة تطلق على الذكر والأنثى ، وهى من رتبة الكواسر وفصيلة الصقوريات ، وهى على انواع :

ـ عقاب رخماء بيضاء الرأس ٠

ـ عقاب ذهبية ٠

ـ عقاب البحر ٠

ـ صرارة (بفتح الصاد وتشديد الراء وفتحها) ٠

راجع المادة بالتفصيل ـ (المترجم) ٠

(١٨) من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم ، وهو حيوان مفترس ٠٠ عن الشهابى ـ (المترجم) ٠

(١٩) وهى على انواع : انجليزية ، افريقية ، لا ورقية تنمو فى الصحارى وعلى السواحل ، وطرفاء عقداء أو مفصلية وهى الأثل ويذكر صاحب معجم المصطلحات الزراعية انواعا كثيرة ، والمقصود غالبا هو ما يعرف فى مصر بأشجار السنط ـ (المترجم) ٠

(٢٠) الغره ساقها طويلة وتعيش فى مياه المستنقعات ٠ راجع مـادة Fulica فى معجم المصطلحات الزراعية ـ (المترجم) ٠

(٢١) Peat والخث بضم الخاء هو الطحاب اذا يبس وقدم عهده ، والكلمة أيضا تعنى التراب العضوى الناتج من تحلل بعض النباتات المائية كالطحالب ويسمى فى مصر (الأشنة) بفتح الألف والشين وهو الحزاز (بفتح الحاء وما بعدها) كما يسمى فى مصر أيضا ـ (المترجم) ٠

(٢٢) طائر يصاد ، طويل الساق ، غير الدجاج الداجن ـ (المترجم) ٠

اقــرأ فى هــذه الســلسلة

أحلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رســـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · ادونسكايا
نقطـــة مقابل نقطـــة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عـــام	ت · و · فريمـــان
الثقـــــافة والمجتمـــــع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـــامضة	ليســـترديل راى
الرواية الانجليــــزية	والتـــــر الـــن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـــاس
آلهـــــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـــاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـــم النحـــاس
مجمـــوعات النقـــود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى – تعبير نغمى – ومنطق	عزيز الشـــــوان
عصر الرواية – مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديـــلان تومـــاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جـــون لويس
الرواية الحـــــديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعـــاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـــود طـــه	أنـــور المعـــداوى
القـــوة النفســـية للاهرام	بيل شول وأدنبيت
فـــن الترجمـــــة	د · صـــفاء خـــلوصى
تولســـــتوى	رالف ئى ماتـــلاو
ســـتاندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزبزج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف • ع • أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د • نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د • فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د • روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا • سبنسر
النحل والطب	د • ناعوم بتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د • ليناور تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د • جون شندلر
الصحافة	بيير البير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د • رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د • محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل • باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د • محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج . دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصي	جوزيف كونراد
الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د. جوهان دروشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د . السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د . مصطفى عنانى
مختارات من الادب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل . باومر
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف . س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س . م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د . سمبسون ونورمان د. اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د. انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد . س . هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	الان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا يكراماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د. محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	احمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر. بورد وملتون جولدينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح فى الفن التشكيلى المعاصر	د . صالح رضا
التقنية فى البلدان النامية	م.هـ . كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه ابو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
الفلسفة وقضايا العصر (ج)	جون بورد
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب . كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر . ج . فوربس
التوافق النفسى	توماس أ . هاريس
الدليل البيبليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	أبو القاسم الفردوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربيـة	اعداد / مونى براح وآخرون
دليل تنظيم المتـاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليـات فن الاخراج	زيجمونت هبز
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بـول كولز
صناع الخلود	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	ألفريد ج. تبلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتـر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتـو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتـار	د. ابرار كريم الله

ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ	هـ.ج. ولز
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
الطفـل ٢ جـ	أرنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السـحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكى
الكون . ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداراى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج. برجن
تبسـيط المفاهيم الهندسية	جى كارفيـــل
تحول السـلطة	الفين توفلر
فن المايم والبانتوميم	توماس ليبهارت
السيناريو فى السينما الفرنسية	اعداد كريستيان سالين
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
رحلة جوزيف تبسى	الحاج يوسف
الفيلم التسجيلى	اعداد محمود سامى عطا الله
بين تولستوى ودووستويفسكى	جورج ستاينر
المرأة الفرعونية	كريستيان دى روشى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٥٤٠/١٩٩٥

ISBN – 977 – 01 – 4613 – 7

قام الأمير النمساوي ردولف برحلته لمصر والقدس في أواخر عهد الخديوي إسماعيل وقد مسح مصر من شمالها إلى جنوبها ووصف معظم المدن المصرية وأشار إشارات مفيدة للآثار ونشر ترجمات رائعة لبعض الكتابات الهيروغليفية وبعد مغادرته مصر توجه إلى حيفا ومنها زار القدس الشريف وغيرها من المزارات المقدسة ووصف الحياة البدوية حول نهر الأردن وأبدى إعجابا بروح التسامح في القدس وتعرض للمذاهب المسيحية والممارسات الطقسية المختلفة كما أورد بعض القصص اليهودية وأبدى رأيه فيها

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب